فيكتور هيجو

مذكرات محكوم عليه بالإعدام

ترجمة

لطفي سلطان

تقديم وتحرير

محمد حسن

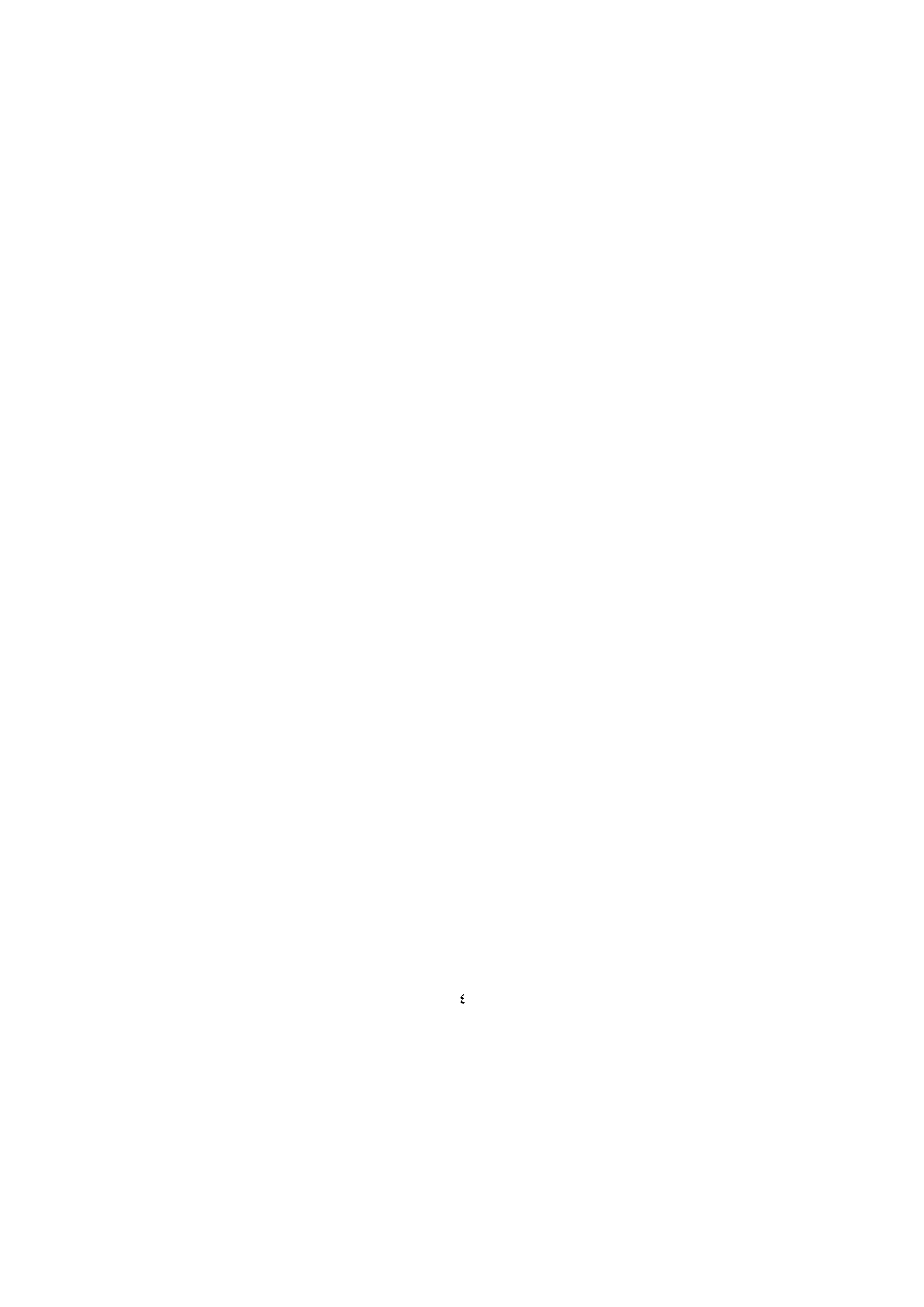
الكتاب: مذكرات محكوم عليه بالإعدام (رواية)
الكاتب: ڤيكتور هيجو
ترجمة: لطفي سلطان
تقديم وتحرير: محمد حسن
الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣
APA
http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
هيجو، ڤيكتور
مذكرات محكوم عليه بالإعدام/ ڤيكتور هيجو، ترجمة: لطفي سلطان، تقديم وتحرير: محمد حسن – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٨٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٤ ٤٦٦ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٥٦٥٩ / ٢٠٢٢

مذكرات محكوم عليه بالإعدام





تقديم

لم تنفصل حياة هوجو عن أدبه، فلم يكن يكتب إلا ما يؤمن به، سواء كتب عن الحب أم عن البؤساء والمشردين أم رافضا حكم الإعدام، وقد كان الناقد والمترجم المصري الراحل "لطفي سلطان" كان من أشد المعجبين بفيكتور هوجو، وكان من أوائل من قدموه للقارىء العربي، فترجم العديد من أعماله التي صدرت في القاهرة ما بين أربعينيات القرن العشرين وستينياته، وللمترجم عدد من المقالات التي تناولت بالتحليل روايات وحياة فيكتور هوجو، أما أهم آثاره وهو الذي لم يسبقه إليه أحد، فيتمثل في كتابه "غراميات فيكتور هوجو"، الذي أصدره قبل أكثر من خمسة وستين عاما، وفيه – كما يقول – "سأحاول أن أقدم قصة حياة الشاعر العظيم وأبين تطوره الفكري والعاطفي، مع العناية بإبراز الأحداث التي كان لها أثر في إنتاجه الأدبي وفي حياته بوجه عام، وهي حياة تجاوزت في جميع نواحيها كل الحدود المألوفة لبني الإنسان. وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى رجل كفيكتور هوجو لا يعتبر شخصًا عاديًا، وقد بلغت به مواهبه مرتبة العباقرة الأفذاذ".

ومن أهم ما قدمه المترجم كتاب "مذكرات محكوم عليه بالإعدام" التي نال عنها جائزة الترجمة لتميز الكتاب من ناحية ولجودة ترجمته من ناحية أخرى. ولنفس الأسباب تنهض "نعيد إعادة إصدار الكتاب لإتاحته للقارئ العربي في طبعة جديدة منقحة.

والكتاب عبارة عن خطاب داخلي لسجين محكوم عليه بالإعدام، قبل أسابيع قليلة من موعد إعدامه يحاول فيها فكتور هوجو إيصال رسالة إلى الإدارات المسؤولة – آن ذاك – أن عقوبة الإعدام ليست الحل الأمثل للمجرم، فنحن فى هذه الحالة لا نعطيه فرصة لتصحيح أخطائه، ونحن لا نعرف لا اسم المحكوم ولا الجريمة التى قام بها، لكنه يحكي لنا عن صعوبة المواقف التى يمر بها حينما لا تتذكره ابنته الصغيرة وعن المؤسسات الإدارية.

وهذه الرواية أوقفت حكم الإعدام في فرنسا، حيث كان حكم الإعدام من الأحكام الجازمة في بريطانيا لمعاقبة معتادو الإجرام، ولكن في وقتنا هذا لا يوجد ألغيت عقوبة الإعدام في فرنسا وذلك يعود للروائي فيكتور هوجو والذي كانت روايته "آخر يوم لمحكوم عليه بالإعدام" سببا لذلك، فقد الرواية اعتبرها الكثير صرخة من جانب "هوجو" أمام حكم الإعدام، وأنها كانت حجر الزاوية التي استند إليه الحقوقيون لإلغائها، حتى توصلوا إلى ذلك في عام ١٩٨١م.

ويجسد هوجو مشاعر وأحاسيس بطل الرواية وهو ينتظر حكم الإعدام، ويبدأ الكاتب في الدفاع عن كل المظلومين في السجن من وجهة نظر إنسانية بحتة، وأجمل ما في هذه الرواية أن "فيكتور هوجو" يذكر على لسان بطل الرواية المحكوم عليه بالإعدام أن هذه الرواية لن تكتمل وأنها ستكون ناقصة لأنه لن يتمكن من كتابة شعوره بعد تنفيذ حكم الإعدام .

سيرة الروائي

ولد فيكتور هوجو فى ٢٦ فبراير ١٨٠٢، في بيزنسون بإقليم دوبس بشرق فرنسا، وهو الابن الثالث للجنرال "جوزيف هوجو"، الذي كان ضابطًا في جيش نابليون، أما الأم فهي "صوفيا تريبوشيه" التي كانت ابنة لضابط في البحرية، ولم تكن حياتهما الزوجية مستقرة، فقد واجها بعض المشكلات التي لم يستطيعا التغلب عليها فانفصلا رسميا، وكان فيكتور في السادسة عشرة من عمره، وكانت الأم قد سبق لها أن تركت إقليم دوبس وعادت إلى بيت أسرتها في باريس مصطحبة طفلها فيكتور وكان يومها في الثانية أخذته والدته للعيش معها في باريس، في حين كان والده يشارك في حروب الجيش الفرنسي، وقد أحب فيكتور باريس وكان يصفها دائما بقوله: "المكان الذي ولدت فيه روحي".

درس هوجو الحقوق، وقبلها درس الأدب اللاتيني، وفي عام ١٨٢٢ نشر أول ديوان شعري بعنوان "أناشيد وقصائد متنوعة" والذي لقي ترحيبًا ومكافأة من الملك لويس الثامن عشر، وفي العام نفسه تزوج من صديقة طفولته أديل فوشيه؛ واستمر بعدها في كتابات متنوعة بين النثر، والشعر، والدراما، والمقالات السياسية، واشتهر ضمن من أطلقوا على أنفسهم "الكتّاب الرومانسيين"؛ وفي مارس عام ١٨٣١ نشر روايته "أحدب نوتردام"، التي أكد فيها موقفه المناهض لعقوبة الإعدام، وقد لاقت الرواية نجاحًا كبيرا على مستوى العالم، ومنحت هوجو مكانة مهمة في تاريخ

الأدب الفرنسي، وتعد هي و"البؤساء" أشهر روايات الأدب الفرنسي، أما دواوينه فمنها: تأملات، أسطورة العصور، ومن مسرحياته ورواياته: مجنون كروميل، من أوراق شجر الخريف، الملك يتسلى، الأصوات الداخلية، الأشعة والظلال، عمال البحر، أغاني الشعب والخشب، الرجل الذى يضحك والعام الرهيب، كذلك كان هوجو رساما متميزا لازالت لوحاته تعرض في المتاحف إلى اليوم.

وفي ديسمبر عام ١٨٥١، وبعد أن استولى لويس نابليون على السلطة في فرنسا ونصّب نفسه إمبراطورًا، شارك هوجو في حركة مناهضة له، ولكنها فشلت، فترك فرنسا مع عائلته وعاش في المنفى حتى عام ١٨٧٠؛ وأثناء إقامته في المنفى نشر أعمالًا أدبية كثيرة كان أشهرها "البؤساء"، والتي تتناول جوانب إنسانية بحتة تحدث فيها عن الحب، والحرب، والطفولة المفقودة، ليعود بعدها إلى فرنسا باعتباره أهم أدبائها.

وقد انتخب هوجو نائبًا عن العاصمة الفرنسية باريس في شهر فبراير من عام ١٨٧١، لكنه استقال في مارس بعد وفاة ابنه شارل، وأسس "جمعية الأدباء والفنانين العالمية" وأصبح رئيسًا فخريًا لها في عام ١٨٧٨، وفي الثاني والعشرين من مايو عام ١٨٨٥ توفي "هوجو" إثر مرض أصاب رئتيه، ودفن تحت قوس النصر، وتمّ تكريمُ ذكراه بوسائل عديدة، لعل من أبرزها وضع صورته على الفرنك الفرنسي.

الذات والإبداع

ولا يمكن الحديث عن فيكتور هوجو دون الغوص في عمق شخصيته باعتبارها المرآة التي تعكس كل السمات النفسية والعقلية له؛ والتي تكونت عبر تأثيرات البيئة وتجارب الحياة والعادات والتقاليد والخبرات اليومية والتي تتغير وتتجدد حسب ظروف الزمان والمكان والمواقف؛ وهي التي تمهد في تميز هذه الشخصية عن تلك في جملة من الخصائص العقلية والجسدية والمعرفية والوجدانية والمزاجية والتي يتم التعرف عن هذه الشخصية من خلال علاقاتها مع الآخرين؛ ومن خلال المواقف السلوكية عند الإقدام بأي فعل أو تفكير في موضوع (ما)؛ ذاتيا كان أو موضوعيا؛ ومن خلال ذلك يتم التعبير عن تلك المواقف والتأثيرات في العمل الإبداعي فنيا كان أو أدبيا، فأي عمل إبداعي لا يمكن تحليله أو تفسيره إلا وفق هذه الرؤية.. وهذه المؤثرات التي هي من تحفز الكاتب أو الفنان الإقدام إليه لتعبير عن مكنونات المؤثرة في ذاته. فالأعمال الإبداعية التي قدمها "هوجو" ما كانت تأخذ مكانتها في الأدب العالمي إلا وهي مفعمة بالمشاعر والأحاسيس الصادقة والمعبرة عن واقع الذي عاشه الأديب؛ فقدمها في نصوصه بكل وفاء لتوقع في النفس نفس قوة التي انطلق منها مشاعر المبدع.

شخصية "هوجو" استطاعت بعطائها الإبداعي إن تتخطى حدود (فرنسا) كروائي وشاعر ورسام وسياسي ومفكر واكب إحداث عصره بكل

تجلياتها كشخصية مدافعة عن حقوق الشعوب ونضالها من اجل الحرية والعمل على رفع مستوى الوعي والتعليم وتثقيف الجماهير ورفع مستواهم ألمعاشي، ولهذا كان نضاله نضالا سياسيا وفكريا احتل مكانة مرموقة ليس في تاريخ بلاده (فرنسا) فحسب بل في تاريخ العالم الحر.

فالصورة الأدبية التي قدمها "هوجو" تجعلنا نربط الحدث بواقعه وما يحمله من معطيات فكرية تخفي في طياتها الكثير من صفاته الشخصية وذكاءه والمؤثرات الاجتماعية والنفسية وطبيعة البيئة التي أثرت وتأثر بها؛ ومحاولته في إيجاد نوع من التوازن بين شخصيته ومحيطه، لان الأديب يجدد سلوكه وخبرته وطموحاته ورؤيته المستقبلية وفق محددات التي تفرضها عليه البيئة، فشخصية "هوجو" لا يمكن تفسيرها إلا وفق هذا التأثير بين ما هو (نفسي) و(موضوعي) أو بين (الداخل) و(الخارج)، فالتأثير والتفاعل بين هذين المصدرين تتم عملية تبادل وتكامل في سلوك الأديب أو الفنان للتعبير؛ الذي هو إنتاج ملاحظات وتسجيل صور في مخيلة المبدع، لتأتي قدرات المبدع العقلية في تشذيب الصور وتحسين إخراجها بصور التي هي أكثر تعبيرا وإحساسا وتأثيرا عند المتلقي وهذه القدرات العقلية عند الأديب أو الفنان هي التي تعلو وتتقوى وفق ثقة الأديب بنفسه، رغم كل الضغوطات المواقف التي يمر بها، فهو يغضب.. ويثور.. وينفعل.. ويتصرف وفق انضباط عالي واثق بنفسه لا يهتز بالمؤثرات الجانبية أو الإغراءات المادية، فعقل وروح المبدع تدفعانه معا للقيام بحركة العمل وبذل

الجهد لتقيد بما هو واقعي ومعبر عن معاناة الشعب وعن روحِ العصر؛ وهو ما قام به "هوجو".

محمد حسن

مقدمة

بقلم: فيكتور هيجو

لم يظهر في مقدمة الطبعات الأولى من هذا الكتاب، الذي نشر أول ما نشر دون ذكر اسم مؤلفه، سوى السطور القليلة التالية:

"هناك وسيلتان نحس عن طريقهما بوجود هذا الكتاب، أو إن شئت فقل: كانت هناك في الواقع رزمة من الأوراق الصفراء غير المنتظمة، سجل عليها آخر ما جال بذهن انسان بائس من أفكار، ورقة بعد ورقة، أو أنه كان هناك رجل مفكر، شغلته ملاحظة الطبيعة في سبيل الفن، رجل فيلسوف أو شاعر – لست أدري – كانت هذه الفكرة نزوة من نزواته سيطر عليها، أو بالأحرى سيطرت هي عليه، ولم يستطع التخلص منها إلا بتدوينها في كتاب.. وعلى القارئ أن يختار من بين هذين التفسيرين ما يروق له".

ويستطيع القارئ أن يلاحظ أن المؤلف لم يجد من المناسب أن يفصح عن فكره عندما نشر هذا الكتاب، وإنما آثر أن ينتظر حتى تفهم فكرته ويتلمس صداها لدى الجمهور. وما لبثت الأيام أن حققت ما كان يتوق إلى معرفته، إذ فهم الجمهور فكرته التي ضمنها هذا الكتاب. ويستطيع المؤلف اليوم أن يكشف النقاب عن الفكرة السياسية والاجتماعية التي أراد أن يروج لها في هذا القالب الأدبي الساذج البرئ، فهو يعترف إذن، أو

بالأحرى هو يعلن بصوت مدو وعلى رءوس الاشهاد، إن كتاب "آخر أيام محكوم عليه بالإعدام" ليس إلا دفاعا مباشرا – أو غير مباشر إن شئت – عن إلغاء عقوبة الإعدام.

إن ما كان يقصد إليه الكاتب بمؤلفه هذا، وما كان يريد أن تتبينه الأجيال المقبلة، إذا هي عنيت بأمره، ليس الدفاع الخاص عن مجرم بعينه أو عن متهم يتخيره الكاتب، فمثل هذا الدفاع الخاص أمره ميسور دائما وهو يتغير تبعا للظروف، بل هو في حقيقة أمره مرافعة عامة وأبدية عن المتهمين جميعا، في الحاضر وفي المستقبل. إنه حجر الزاوية في الحق الإنساني الذي يبسطه الكاتب ويدافع عنه بأعلى صوته أمام المجتمع الذي يعد محكمة النقض الكبرى، مستهدفا حماية حقه في الاستئناف الذي غالبا ما يرفض في قضايا الاجرام!

إنها مشكلة كئيبة مظلمة تنبض في غير وضوح خلف جميع القضايا الكبرى، وتختفي وراء ستار كثيف من الكلام الرنان، ومن البلاغة الدامية التي يحيطها بها رجال الملك (أي رجال القضاء).

نعم، إنني أقول أنها مسألة "الحياة والموت" عارية ومجردة من كل رسميات النيابة العمومية وشكليات الاتهام الرنانة، ومعروضة بشكل بارز في وضح النهار، في المكان الذي يجب أن نراها فيه، مكانها الواقعي على الطبيعة، وفي بيئتها الشنيعة المروعة، لا عند القاضي في المحكمة، ولكن على المقصلة.. عند الجلاد!

ذلك هدف الشاعر الذي رمى إليه من تأليف هذا الكتاب. فإن كلل المستقبل هامته ذات يوم بالمجد – وهو ما لا يجسر على أن يأمله – فسوف يغنيه هذا عن كل شئ آخر.

يعلن المؤلف إذن ويكرر القول باسم جميع المتهمين، سواء كانوا أبرياء أو مذنبين، أمام جميع المحاكم وسائر ممثلي الاتهام والمحلفين: إن هذا الكتاب موجه إلى كل من يصدر حكما. ولكي يتسع مجال الدفاع حتى يشمل القضية برمتها ويغطي كل نواحيها، فقد اضطر الكاتب لكتابة مؤلفه "آخر أيام محكوم عليه بالإعدام"، أو "مذكرات محكوم عليه بالاعدام" على هذه الصورة، وأن يحذف من موضوعه ومن أجزائه جميعا الحادث نفسه والدافع إليه، والظروف الخاصة والشخصية، وكل ما له صلة بالحادث، واسم المذنب، مكتفيا بالدفاع عن قضية شخص ما، محكوم عليه بالإعدام، ونفذ فيه الحكم لجريمة ما في أي يوم من الأيام.

وسوف يكون من دواعي سعادة المؤلف لو أنه استطاع – دون أن يستعين بشئ آخر غير تفكيره – أن يتعمق في موضوعه كل التعمق كي يجعل قلبا تنزف منه الدماء تحت بصر رجال القضاء، ولو أنه تمكن من أن يبعث الرحمة في قلوب أولئك الذين يحسبون أنهم عدول، وسوف يكون من دواعي سروره لو أنه استطاع بتعمقه في نفسية القاضي أن ينجح أحيانا في أن يجد فيه إنسانا!

* * *

وعندما نشر هذا الكتاب منذ ثلاث سنوات، تخيل بعض الناس أن من واجبهم أن يعلنوا على الملأ أن فكرته ليست فكرة المؤلف، فقال فريق منهم أنه قد أخذها عن كتاب انجليزي، وذهب فريق آخر إلى أنه قد اقتبسها عن كتاب أمريكي، وتلك لعمري سنة مرذولة تدفعنا إلى البحث عن أصول الأشياء بعيدا جدا، على مسيرة آلاف الأميال، وتجعل النهير الذي يغسل ماؤه شارعك يأتي من منابع النيل!

ومما يدعو للأسف أن أصل هذا الكتاب ليس انجليزيا ولا أمريكيا ولا صينيا، فالمؤلف لم يأخذ فكرته من كتاب ما، فهو لم يألف أن يذهب باحثا عن أفكاره بعيدا كل هذا البعد، وإنما أخذها من حيث تستطيعون جميعكم أن تأخذوها أو من حيث يحتمل أن تكونوا قد لمستموها بالفعل (إذ من منا لم يحلم، أو يفكر، فيما بينه وبين نفسه، في آخر يوم في حياة شخص محكوم عليه بالاعدام؟).. من الشارع، بكل بساطة، أو من الميدان العام، أو من ساحة الاعدام. إنه التقط هذه الفكرة الكئيبة وهو يمر من هناك ذات يوم.. التقطها وهي ملقاة على الأرض في بركة من الدماء، تحت سلاح المقصلة الأحمر الرهيب!

وكلما كان يذاع حكم بالاعدام في باريس، تبعا لقضاة محكمة النقض في أيام الخميس الكئيبة، كانت هذه الفكرة الأليمة تعود إلى المؤلف وتستولي على نفسه، في كل مرة كان يسمع فيها تلك الصيحات المبحوحة التي تجمع المتفرجين وتؤلبهم حول ساحة الاعدام، وهي تمر من تحت نوافذ

بيته. نعم، كانت هذه الفكرة تلح عليه فتملأ رأسه بما فيها من جنود البوليس والجلادين والجماهير، وتنقل إلى مشاعره الآلام الأخيرة التي يقاسيها البائس المحتضر ساعة بساعة، فتقول له: انهم في هذه اللحظة يجعلونه يعترف أمام القسيس.. وفي هذه اللحظة، يقصون له شعره.. وفي هذه اللحظة، يوثقون يديه!

وكانت هذه الأفكار ترغم المؤلف المسكين – وهو شاعر مرهف الحس رقيق الشعور – على أن يقول كل ذلك للمجتمع الذي تشغله شئونه المعتادة، في الوقت الذي تتم فيه هذه العملية البشعة، وكان هذا الخاطر يطارده ويهز عواطفه، وينتزع وحي الشعر من أعماق نفسه ان كان يعالج كتابته ويقتل أبياته على لسانه وهي بعد لم تر النور! نعم، كانت هذه الفكرة تحاصره وتلح عليه، وتملأ رأسه ونفسه فتعطل كل أعماله، وتعترض سبيله في كل شئ. وكان الأمر بالنسبة إليه عذابا أليما يبدأ مع مطلع النهار، ثم يستمر بعد ذلك مع عذاب المذنب البائس الذي كان يمتد حتى الساعة الرابعة صباحا. وعندئذ فقط، وبعد أن يتنفس الفجر، كان في وسع المؤلف أن يتنفس وأن يجد في نفسه شيئا من الحرية!

وأخيرا، شرع المؤلف ذات يوم في كتابة هذا الكتاب، وكان ذلك – على ما يعتقد – في اليوم التالي لاعدام "دولباخ"، فخف عنه كربه منذ ذلك الحين، وأصبح ضميره يوحي إليه أنه ليس متضامنا مع العدالة في كل مرة ترتكب فيها إحدى هذه الجرائم العامة التي يسمونها تنفيذ حكم

الإعدام، ولم يعد يحس على جبينه بقطرة الدماء التي تسقط من ساحة الاعدام على رأس كل فرد من أفراد المجتمع.

ومع ذلك فإن هذا كله ليس كافيا، فالتبرؤ من الجريمة شئ حسن، ولكن الأفضل منه منع إراقة الدماء. ولهذا، فلن يعرف المؤلف هدفا أسمى ولا أسلم ولا أنبل من هذا الهدف، ألا وهو الإسهام في الغاء عقوبة الإعدام، ومن ثم فإنه يضم ثمنياته وجهوده بكل قواه، إلى جهود الرجال الكرماء في كل الأمم، الذين يعملون جاهدين منذ عدة أعوام من أجل اسقاط المقصلة، وهي الشئ الوحيد الذي لاتحتثه الثورات. وسوف يسر المؤلف أن يأتي بدوره، وهو الرجل الضعيف، ليضرب ضربته معاونا في هدم آلة الاعدام التي تسلط منذ قرون عديدة على رءوس الناس.

* * *

لقد ذكرنا منذ لحظة أن المقصلة هي البناء الوحيد الذي لا تقوضه الثورات، والواقع أنه يندر أن تبخل الثورات بدم البشر، فهي تأتي لتغير وتعدل من نظم المجتمع وأوضاعه، ومن ثم تكون عقوبة الاعدام من الأمور التي لا تتنازل عنها إلا بصعوبة بالغة.

ولكننا سوف نعترف مع ذلك بأنه إذا كانت هناك ثورة قد بدت لنا مجيدة، وتستطيع حقا أن تلغي عقوبة الإعدام، فإن هذه الثورة هي ثورة يوليو، إذ يبدو لنا في الواقع أنه من واجب أكثر الحركات الشعبية تسامحا في العصر الحديث أن تلغي هذه العقوبة البربرية التي أنشأها لويس الحادي

عشر وريشليو وروبسبير، وأن تنص في القانون على عدم جواز اهدار حياة الإنسان. نعم، أن ثورة يوليو عام ١٨٣٠ كانت جديرة بتحطيم مقصلة عهد الإرهاب التي كانت قائمة منذ عام ١٧٩٣.

لقد رجونا ذلك لحظة، ففي شهر أغسطس من عام ١٨٣٠، كان في وسع المرء أن يستنشق في الجو كثيرا من الشفقة والكرم، وكانت ترفرف فوق الجماهير روح جميلة من الرقة والمدنية، وكنا نشعر بأن قلوبنا تتفتح وهي تحس باقتراب مستقبل باسم، حتى بدأ لنا أن عقوبة الإعدام قد ألغيت بالفعل دفعة واحدة باتفاق عرفي عام، شأنها شأن غيرها من الأمور التي كانت قد ضايقتنا أشد المضايقة!

إن الشعب كان قد تخلص من آثار العهد البائد في فرح غامر، والمقصلة أثر دام من هذه الآثار، وقد حسبنا أننا تخلصنا منها وأنها حرقت مع ما حرق، وظللنا لعدة أسابيع نثق بالمستقبل في سذاجة، مؤمنين بأنه لا يمكن الاعتداء على الحياة كما لا يمكن الاعتداء على الحرية.

والواقع أنه ما كاد ينقضي شهران حتى بذلت محاولة تهدف إلى تحقيق الأمنية المثالية العظمى، التي طالما تمناها "سيزار بونيزانا"، ألا وهي إلغاء عقوبة الاعدام وجعلها حقيقة قانونية، غير أن هذه المحاولة كانت تفتقر، للأسف، إلى المهارة والحذق، بل انها كانت خبيثة تقريبا، فقد تمت بقصد خدمة مصلحة أخرى غير المصلحة العامة.

إننا نتذكر أنه في شهر أكتوبر من عام ١٨٣٠، بعد أن استبعد

البرلمان اقتراح دفن نابليون تحت تمثال العامود بعدة أيام، أخذ ممثلو الأمة جميعا يبكون وينتحبون، وطرحت مسألة الحكم بالاعدام على بساط البحث، وسوف نذكر بعد بضعة أسطر في أية مناسبة طرح هذا الموضوع للبحث، فبدأ عندئذ أن قلوب هؤلاء المشرعين جميعا قد امتلأت فجأة بشفقة عجيبة، حتى أنهم كانوا يتزاحمون على الكلام، وعلى العويل والنحيب ورفع أيديهم نحو السماء!.. الحكم بالاعدام!.. يا اله السموات والأرض!.. يا له من شئ بشع شنيع!

نعم.. هكذا كانوا يقولون، ومنهم هذا النائب العام الشيخ الذي أبيض شعره وهو يرتدي "الروب" الأحمر، والذي سلخ كل حياته وهو يأكل الخبز مغموسا في دم الاتهامات، فقد لبس من فوره مسوح العطف والشفقة، وأشهد الآلهة على أنه يمقت المقصلة. ولم يخل المنبر لمدة يومين كاملية من خطب تفيض بالبكاء والنحيب حتى بدا الأمر وكأنه "محزنة" ندب فيها الندابون، ورددوا فاصلا من التراتيل الحزينة مع "تخت" كبير، كبير جدا، بمصاحبة المجموعة "الكورس" المكونة من كل هؤلاء الخطباء الذين يشغلون الصفوف الأولى من المجلس النيابي، والذين يرسلون انغاما جميلة للغاية في الأيام المجيدة. لقد غني كل منهم على طريقته ولم يكن هناك نقص في أي شئ. وكان الأمر يثير العاطفة ويحرك الشفقة إلى أقصى حد، خاصة وأن جلسة الليل كانت أبوية رحيمة، تتقطع لها نياط القلوب، تماما كما تتقطع لدى رؤية الفصل الخامس من مسرحية "لاشوسيه"، وكانت

الدموع تترقرق في أعين الجمهور الطيب القلب الذي كان لا يفهم شيئا من كل ذلك.

فعلام كانت تدور مناقشتهم عندئذ؟ الغاء عقوبة الاعدام؟

نعم.. ولا!

وهذا هو الواقع:

ان أربعة رجال من المجتمع الراقي، أربعة رجال ذوي مراكز مرموقة من صنف هؤلاء الرجال الذين نصادفهم في صالونات الطبقة العليا، والذين قد نتبادل معهم بضع كلمات مؤدبة، أقول أن أربعة من هؤلاء الرجال كانوا قد حاولوا، في الدوائر السياسية العليا، إحدى هذه الضربات الجريئة التي يسميها "بيكون" جرائم، ويطلق عليها "ماكيافيللي" اسم "مشاريع" ولكن القانون في قسوته على الجميع يعاقب على هذه الجرائم أو المشاريع بالاعدام. وكان هؤلاء الرجال الأربعة سجناء وأسرى في قبضة القانون يحرسهم ثلثمائة جندي في سجن "فانسين".. فما العمل وكيف العمل؟.. لا شك في أنكم تفهمون أنه يستحيل أن يرسل إلى ساحة الاعدام أربعة رجال مثلي ومثلك.. أربعة رجال من الطبقة الراقية لا يمكن أن يساقوا إلى ساحة الاعدام في عربة "كارو" وهم مقيدون بالحبال الغليظة في بشاعة، وظهر كل واحد منهم إلى ظهر الآخر، ومعهم هذا الموظف الذي يجب ألا يذكر اسمه قط!.. آه لو كانت هناك مقصلة من خشب ثمين!

آه!.. ليست هناك إذن وسيلة لإنقاذ رءوسهم إلا بالغاء عقوبة الاعدام!

* * *

وهنا تحرك البرلمان وبدأ في العمل..

أرجو أن تلاحظوا أيها السادة أنكم حتى الأمس القريب كنتم تنعتون هذا الالغاء بأنه مجرد نظرية مثالية خيالية، وبأنه حلم وشعر وجنون. ولاحظوا كذلك أن هذه ليست أول مرة يحاولون فيها لفت نظركم إلى العربة "الكارو"، وإلى الحبال الغليظة، وإلى الآلة الحمراء البشعة! أنه لمن الغريب حقا أن تسترعي كل هذه الأشياء الرهيبة انتباهكم الآن فجأة على هذا النحو!

صمتا! فالأمر ليس كما تظنون! فنحن لا نلغي عقوبة الإعدام من أجلك أنت أيها الشعب، بل من أجلنا نحن النواب الذين قد نصبح وزراء في يوم من الأيام. فنحن لا نريد أن تعض المفصلة الطبقات العليا، ومن أجل ذلك فإننا نحطمها، وحسنا نفعل إذا كان عملنا هذا فيه ارضاء للجميع، غير أننا لم نفكر إلا في أنفسنا ونحن نقوم به! فلنطفئ النار إذن، ولنلغ الجلاد بسرعة، ومعه قانون الاعدام.

وهكذا، فإن مزيجا من الأنانية ينحرف بخير المشروعات الاجتماعية ويفسدها. إنه العرق الأسود يجري في الرخام الأبيض، ويسير في كل موضع فيه فيظهر فجأة، وفي أية لحظة، تحت "أزميل" النحات. أن تمثالكم أيها السادة يجب أن يعاد صنعه من جديد.

ونحن لا نشعر يقينا بأننا في حاجة إلى أن نعلن ذلك هنا، فلسنا من الذين كانوا يطالبون برءوس الوزراء الأربعة. فبعد القبض على هؤلاء

الرجال ذوي الحظ العاثر، تحول لدينا الغضب والاشمئزاز اللذان كنا نشعر بهما بسبب مؤامرتهم إلى شفقة عميقة كما حدث لدى الجميع. لقد أنعمنا النظر في الأفكار العتيقة التي تربى عليها بعضهم، وفي عقل رئيسهم ذي الأفق الضيق، وهو انسان متعصب ومتآمر عنيد ممن أسهموا في مؤامرات عام ١٨٠٤، قد أبيض شعره قبل الأوان، وهو في الظل والرطوبة في سجون الدولة، كما فكرنا في كل الظروف الحتمية التي كانت تحيط بموقفهم المشترك، وفي استحالة وقف هذا الانحدار السريع الذي كانت الملكية قد دفعت نفسها إليه بأقصى سرعتها في الثامن من أغسطس عام ١٨٢٩، وفكرنا كذلك في مدى الأثر الذي يحدثه شخص الملك ذاته في أنفسنا، وهو أثر لم نكن نشعر به إلا قليلا جدا حتى ذلك الحين، وفكرنا خاصة في العزة والكرامة اللتين كان أحدهم يبسطهما على الآخرين في محنتهم كمعطف ثمين.

لقد كنا من الذين كانوا يتمنون لهم مخلصين أن تنقذ حياتهم، وكنا على أهبة الاستعداد لأن نضحي في هذا السبيل، فلو حدث المستحيل ونصبت لهم المشنقة يوما في ساحة الاعدام، فإننا لا نشك في أنه سوف تحدث مظاهرات شعبية عنيفة لتهدم هذه المشنقة، وسوف يكون كاتب هذه السطور مع تلك المظاهرات المقدسة إذ يجب علينا أن نقول كذلك في صراحة، انه إذا قورنت كل المشانق في أوقات الأزمات السياسية، فإن المشنقة السياسية تكون أبشعها وأكثرها شؤما وأوفرها سما وأجدرها بالإزالة

على الإطلاق. إن هذا الضرب من المفصلة تنبت جذوره في الشارع، ويترعرع في وقت وجيز لينتشر في الأرض. ففي وقت الثورة، خذوا حذركم لأول رأس يهوى، لأنه يفتح شهية الشعب.

لقد كنا إذن متفقين شخصيا مع الذين كانوا يريدون انقاذ رءوس الوزراء الأربعة، كنا متفقين معهم على أية صورة من الصور، وذلك لأسباب عاطفية وأخرى سياسية، وإنما كنا نؤثر فقط أن يتخير البرلمان فرصة غير هذه لأقتراح الغاء عقوبة الاعدام.

ولو أنهم اقترحوا هذا الالغاء لا بمناسبة سقوط أربعة وزراء من قصر التويلري (قصر الحكم) إلى سجن "فانسين"، بل من أجل أي مجرم عادي، من أجل واحد من هؤلاء البائسين الذين لا تدقق النظر إليهم حينما يمرون على مقربة منك في الطريق ولا تبادلهم الحديث، وتتجنب الاحتكاك بهم بغريزتك لقذارة ملبسهم، هؤلاء التعساء الذين كانت طفولتهم جريا في العراء وهم حفاة في الوحل عند تقاطع الشوارع، يرتجفون من البرد شتاء على قارعة الطريق، ويستدفئون على دخان المطابخ، مطابخ مطعم "مسيو فليفور" العظيم، الذي تتناول طعامك فيه، وهم ينقبون هنا وهناك عن كسرة من الخبز في وسط القمامة ويمسحونها قبل أن يتبلغوا بها، ثم ينبشون عن غيرها. وليس لهم من تسلية إلا ذلك المنظر المجاني، منظر عيد الملك، ومنظر المحكوم عليهم بالموت، وهم في ساحة الاعدام، وهذا المشهد الأخير بالمجان كذلك. يا لهم من بائسين مساكين يدفع بهم الجوع إلى السرقة،

وهذه تدفع بهم إلى الباقي! إنهم أطفال محرومون في مجتمع قاس تأخذهم اصلاحيات الاحداث في سن الثانية عشرة، والليمان في الثامنة عشرة، وتتلقفهم المشنقة في سن الأربعين. إنهم سيئو الحظ، وكان في وسعكم بمدرسة ومصنع أن تجعلوا منهم اناسا طيبين صالحين، اناسا نافعين ذوي خلق كريم. انهم سيئو الحظ لأنكم لا تدرون ماذا تفعلون بهم إلا أن تلقوا بهم كما يلقي المرء بحمل لا نفع فيه، تارة في ليمان "طولون" وأخرى في مقبرة "كلامار"، لتسلبوهم الحياة بعد أن تكونوا قد سرقتم الحرية منهم..
فلو أنكم اقترحتم الغاء عقوبة الاعدام من أجل واحد من هؤلاء الرجال، لكانت جلستكم إذن مجيدة حقا، وعظيمة وجليلة ومقدسة وجديرة بالتبجيل. فمنذ أن دعا قساوسة "ترانت" العظماء الخارجين على الكنيسة إلى الاجتماع بهم باسم الرحمة الالهية، إذ كانوا يأملون هدايتهم، لم نر قط جماعة من الرجال قدمت للعالم ما هو أكثر عظمة ونبلا وشفقة ببني البشر من هذا المشهد. لقد كان من الواجب دائما على أولئك الذين هم أقوياء وعظماء حقا أن يعنوا بالضعيف، وأن يهتموا بأمر الصغير. إن جمعية من البراهمة كانت تكون جميلة لو أنها عنيت بأمر الفقير المعدم، وقضية الفقير المعدم هنا ليست إلا قضية الشعب. فلو أنكم كنتم الغيتم عقوبة الاعدام من أجل الشعب، دون أن تنتظروا حتى تكون لكم مصلحة في ذلك، لأتممتم بهذا ما هو أكثر من العمل السياسي، ولأتممتم عملا اجتماعيا بمعنى الكلمة، لكنكم لم تنجزوا حتى مجرد عمل سياسي بمحاولتكم الغاء عقوبة الاعدام، لا التماسا لهذا الالغاء لذاته، ولكن لإنقاذ أربعة وزراء

بائسين ضبطوا متلبسين بتهمة التآمر لأحداث انقلاب!

فماذا حدث؟ إنكم قد أثرتم الريب والشكوك، نظرا لأنكم لم تكونوا مخلصين. وعندما رأى الشعب أن الغرض هو خداعه غضب على هذه المسألة برمتها وحدث أمر جدير بالملاحظة، فقد تحمس الشعب لحكم الاعدام مع أنه هو الذي يتحمل عنه كله! إن افتقاركم إلى المهارة هو الذي جعل الأمور تسير على هذا النحو، فأنتم قد أسأتم إلى هذه المسألة إساءة طويلة الأمد بمعالجتكم اياها على هذا النحو من اللف والدوران وعدم الصراحة. لقد كنتم تمثلون رواية هزلية فصفر النظارة لكم.

ومع ذلك، فقد أخذت بعض النفوس هذه المهزلة مأخذ الجد، وصدر الأمر، بعد جلسة البرلمان المشهورة مباشرة، من حامل الأختام – وهو رجل شريف – إلى رؤساء النيابة بايقاف تنفيذ أحكام الاعدام إلى أجل غير مسمى. وكان ذلك خطوة كبرى في الظاهر، وتنفس أعداء عقوبة الاعدام الصعداء ولكن فرحتهم لم تتم. كانت وهما قصير الأمد.

وانتهت محاكمة الوزراء، ولا أعرف الحكم الذي صدر عليهم، وأنقذت رءوسهم الأربعة، واختير لهم سجن "هام – Ham" كحل وسط بين الموت والحرية. وبعد أن تمت كل هذه الاجراءات، تلاشى كل أثر للخوف من نفوس القادة من رجال الحكم، ومع ذهاب الخوف تلاشت كل المشاعر الانسانية، ولم يعد أحد منهم يذكر إلغاء عقوبة الاعدام..

ولما لم يعد من مصلحتهم اثارة هذه المسألة، عاد الخيال خيالا،

وارتدت النظرية إلى سيرتها الأولى، وانقلب الشعر شعرا كما كان من قبل.

ومع ذلك، كان لا يزال هناك في السجون بعض البائسين من المحكوم عليهم بالاعدام العاديين، كانوا يتنزهون في ردهات السجون منذ خمسة أشهر أو ستة، وهم يستنشقون الهواء وقد هدأت أنفسهم منذ إثارة هذه المسألة في البرلمان، ووثقوا من أنهم سوف يعيشون وقد اعتقدوا أن ايقاف التنفيذ هذا معناه العفو عنهم.. ولكن، صبرا لحظة!

* * *

حقا لقد كان الجلاد خائفا للغاية، ففي اليوم الذي كان قد سمع فيه المشرعين يتحدثون عن الانسانية وعن حب الغير وعن التقدم، ظن أنه ضائع لا محالة! وبلغ من تعاسته أنه اختبأ تحت مقصلته وهو لا يحس بأدنى سرور أو ارتياح تحت شمس شهر يوليو، كبومة في وضح النهار، وهو يحاول جاهدا أن يجعل الناس ينسون أمره، وكان يسد أذنيه، ولا يجرؤ على أن يلتقط انفاسه.. لم يعد يراه أحد منذ ستة أشهر، ولم يكن أحد يدري ما إذا كان ميتا أو لا يزال على قيد الحياة، ومع ذلك فقد أخذ الرجل يطمئن رويدا رويدا في ظلماته، وكان ينصت إلى ما كان يدور في البرلمان فلم يعد يسمعهم ينطقون باسمه، ولم يعد يسمع تلك الكلمات الرنانة التي كانت قد ألقت في قلبه الرعب. لم تعد ثمة تعليقات بليغة عن كيفية معالجة الجرائم والعقوبات، فقد كانوا يهتمون بأشياء أخرى على شئ من الخطورة فيما يختص بمصلحة المجتمع، كطريق يصل بين قريتين، أو منح إعانة لممثلي دار

الأوبرا، أو زيادة الميزانية الهزيلة بمقدار مائة ألف من الفرنكات!! لم يعد يفكر فيه أحد، هو: قاطع الرءوس!

وما إن رأى الرجل ذلك حتى اطمأن قلبه، وأطل برأسه خارج الجحر مقلبا بصره في جميع الاتجاهات، ثم خطا إلى الأمام خطوة أو خطوتين، كما يفعل أي فأر من فئران الشاعر "لافونتين"، وبعد ذلك خاطر بأن خرج تماما من مخبئه، ثم قفز على المقصلة وأخذ يعدها ويمسحها ويصلح من شأنها، ثم لمعها وداعبها وجربها "على الفاضي" وهو يعد نفسه بأن يقدم عملا لهذه الآلة القديمة التي علاها الصدأ وأتلفتها البطالة!!

وتلفت الجلاد خلفه فجأة، وأمسك بأحد هؤلاء المنكودي الحظ كما سمحت له الصدفة في أول سجن صادفه، أحد هؤلاء الذين كانوا يعولون على الحياة، أمسك به من شعره وجذبه إليه، ثم جرده من ملابسه، وشد وثاقه، وأعدمه.. وهكذا عادت عقوبة الاعدام!

إن هذا كله شئ شنيع.. ولكنه التاريخ!

نعم، لقد كانت هناك فترة مدتها ستة أشهر أجل فيها تنفيذ عقوبة الاعدام ومنحت لمسجونين تعساء، ضوعفت لهم العقوبة مجانا على هذا النحو بجعلهم يأملون في الحياة ويتعلقون بها، ثم.. بلا سبب.. ولغير ضرورة، ولمجرد اللذة ألغي وقف تنفيذ أحكام الاعدام ذات صباح، وقطعت رءوس كل هؤلاء الناس في برود شديد وبطريقة منظمة.. آه!.. يا الهي! هل لي أن أسألكم: ما ضرنا نحن جميعا لو عاش هؤلاء الرجال؟ ألا

يوجد في فرنسا هواء يكفي الجميع؟

ونظرا لأن كاتبا صغيرا في الحكومة كان لا يعنيه الأمر، نهض من على مقعده ذات يوم، وهو يقول: "هيا بنا!.. لم يعد أحد يفكر في إلغاء عقوبة الاعدام. لقد حان الوقت لنعود إلى قطع الرقاب بالمقصلة!" لابد أن يكون قد حدث في قلب هذا الرجل أمر وحشي، أمر بالغ الشناعة!

ونرى لزاما علينا أن نقول من ناحية أخرى أنه لم تصاحب تنفيذ أحكام الاعدام ظروف أكثر بشاعة قط إلا منذ إلغاء وقف تنفيذ أحكام الاعدام، الذي صدر الأمر به في شهر يوليو – ولم تكن قصص ما يجري في ساحة الاعدام قط أكثر إثارة للنفوس، مما يبرهن تماما على مقت الناس لعقوبة الاعدام.. إن ازدياد فزع الناس من هذا الحكم إنما هو عقاب عدل موجه لأولئك الذين أعادوا تطبيق قانون الدم، فليلقوا جزاء وفاقا على ما صنعوه.

* * *

ويجب أن نذكر هنا مثلين أو ثلاثة أمثال لما حدث في بعض وقائع الاعدام، مما ينضح بشاعة وقذارة. يجب علينا أن نرهق أعصاب زوجات وكلاء النيابة، فالمرأة لها أثرها أحيانا في إيقاظ الضمير.

في نهاية شهر سبتمبر الماضي على وجه التقريب، وفي أواسط فرنسا – ولا يحضرنا تماما المكان، واليوم، واسم المحكوم عليه، ولكننا سوف نعثر على هذا كله إذا حدث أن شك أحد أو عارض في صحة هذه الواقعة –

ونعتقد أن ذلك حدث في "باميه" فقد دخلوا على رجل في سجنه حيث كان يلعب الورق في هدوء، فأعلنوه بأنه سوف يموت بعد ساعتين، فأرسل هذا القول رجفة قاسية في كل أوصاله. ذلك أنهم كانوا قد نسوا أمره لستة أشهر فلم يعد يفكر في الموت.. وحلقوا للرجل لحيته، وقصوا له شعره، وأوثقوه بالحبال، وجعلوه يعترف أمام القسيس، ثم اركبوه عربة "كارو" بين أربعة من الجنود، ومروا به خلال الجماهير حتى وصلوا إلى مكان التنفيذ.

وإلى هنا، فالأمر يهون، إذ أنه يتم على هذا النحو. ولما بلغ الرجل مكان الآلة الرهيبة تلقاه الجلاد من القسيس، وحمله وربطه على المقصلة، ثم جعله يطأطئ رأسه وهوت السكين. لقد تحرك المثلث الحديدي الثقيل في صعوبة ثم هوى وهو يحك في مجراه! وهنا بدأت البشاعة، فقد أخذت السكين تحز في رقبة الرجل دون أن تذبحه، فصاح صيحة بشعة. وحار الجلاد في الأمر فرفع السكين ثم تركها تهوي من جديد. فعضت رقبة المسكين مرة أخرى ولكنها لم تقطعها. فصرخ المحكوم عليه، وصاح الجمهور كذلك، فرفع الجلاد السكين مرة ثالثة وهو يأمل خيرا في الضربة الثالثة ولكن.. بلا جدوى!

إن الضربة الثالثة قد فجرت نهرا ثالثا من الدماء أخذ يجري على رقبة المحكوم عليه ولكنها لم تطح برقبته!

والآن فلنوجز: إن السكين قد رفعت ثم هوت خمس مرات وخمس مرات جرحت المحكوم عليه، وخمس مرات صرخ الرجل من أثر الضربة،

وهز رأسه الحي وهو يطلب الرحمة! فثار الشعب وأمسك بأحجار ليرجم بها الجلاد التعس، فهرب الجلاد تحت المقصلة واحتمى خلف خيول الجنود.. ولكن هذه ليست نهاية المأساة..

إن المحكوم عليه حينما وجد نفسه وحيدا على المقصلة، اعتدل على اللوحة الخشبية وظل واقفا هناك بمنظره المفزع، وهو يقطر دما ويسند رأسه نصف المقطوع، الذي كان يتدلى على كتفه، وراح يطلب في صياح مبحوح أن يفكوا وثاقه!

فغمرت الشفقة قلب الجمهور، وهم بأن يقتحم نطاق الجنود وأن يخف لنجدة هذا البائس الذي نفذ فيه حكم الاعدام خمس مرات. وفي تلك اللحظة بالذات، صعد على المقصلة صبي الجلاد، وهو شاب في نحو العشرين من عمره، وأمر المحكوم عليه بأن يستدير كي يفك وثاقه، ثم استغل وضع هذا الرجل المشرف على الموت، الذي كان يسلم نفسه إليه بسلامة نية، فوثب على ظهره وشرع يقطع له في صعوبة ما كان قد تبقى من رقبته بسكين جزار!

إن هذا قد حدث ورآه الناس رأي العين.. نعم، رأوه رأي العين!

وكان هناك بحسب نص القانون، قاض يشهد تنفيذ هذا الحكم. وكان يستطيع بإشارة منه أن يوقف كل شئ! فماذا كان يفعل هذا الرجل إذن وهو في عربته بينما كانوا يغتالون انسانا؟ ماذا كان يفعل معاقب القتلة هذا في الوقت الذي كانت عملية اغتيال تجري في وضح النهار، أمام عينيه،

وتحت خيول عربته، وتحت زجاج نافذتها؟

لم يقدم القاضي للمحاكمة! ولم يقدم الجلاد للمحاكمة، ولم تحقق أية محكمة في هذا الافناء الوحشي لجميع القوانين في شخص مخلوق مقدس من مخلوقات الله!

* * *

في عصر همجية القانون الجنائي في القرن السابع عشر، إبان حكم "ريشيليو" وحكم "كريستوف فوكيه"، حينما إعدم السيد "دي شاليه" أمام الناس في ميدان بمدينة "نانت" على يدي جندي غير ماهر ضربه أربعا وثلاثين ضربة بآلة حادة يستعملها صانع البراميل في تجميع الخشب، وذلك بدلا من أن يضربه ضربة واحدة بسيف، بدا هذا على الاقل أمرا غير مشروع في نظر برلمان باريس، فأجرى تحقيقا وأقيمت قضية. ولئن كان ريشيليو لم يعاقب، ولئن كان كريستوف فوكيه لم يعاقب، فإن ذلك الجندي قد لقي جزاءه. كان هذا ظلما دون شك، ولكنه ظلم يكمن العدل وراءه!

أما هنا، فلم يحدث شئ على الاطلاق. لقد وقع هذا الحادث بعد شهر يوليو في وقت سادت فيه الطباع الرقيقة والتقدم، وبعد عام واحد من "محزنة" البرلمان المشهور على عقوبة الاعدام. حسنا! إن هذا الحادث لم يذكره أحد على الاطلاق، ونشرته صحف باريس كأنه حكاية عادية، ولم يحاكم أحد بسببه ولم يوجه الإتهام إلى أحد!

كان كل ما عرفوه أن المقصلة قدأ تلفت عمدا، أتلفها شخص كان "يريد

أن يضر بمنفذ أحكام القضاء"، كان هذا الشخص هو أحد خدم الجلاد، وقد دبر هذه المكيدة لينتقم من سيده لأنه كان قد طرده من خدمته.

لم تكن هذه إلا مكيدة خادم، فلنتابع سرد أمثلتنا إذن:

وفي مدينة "ديجون"، سيقت امرأة منذ ثلاثة أشهر إلى ساحة الإعدام، (تصوروا.. امرأة!)، وفي هذه المرة أيضا لم تؤد سكين الدكتور جيوتان عملها كان يجب، فلم تقطع الرأس تماما بحيث ينفصل عن الجسم. وعندئذ، تعلق مساعدو الجلاد بقدمي المرأة، وفصلوا رأس البائسة عن جسدها وهي تطلق صرخات مدوية، بأن انتزعوها انتزاعا بقوة الشد والجذب.

وفي باريس، نعود إلى الوقت الذي كان يجري فيه تنفيذ عقوبة الاعدام في السر. فنظرا إلى أنهم كانوا منذ شهر يوليو لا يجرءون على تنفيذ أحكام الاعدام في ساحة الاعدام، وإلى أنهم كانوا خائفين، وبما أنهم كانوا جبناء، فإن هذا هو ما حدث:

لقد أخذوا أخيرا من سجن "بيستر" رجلا محكوما عليه بالاعدام، يدعى "ديزاندريو" على ما أعتقد، ووضعوه في شئ يجر على عجلتين، مغلقا من كل نواحيه كلة، ومقفلا قفلا محكما بالاقفال والمزاليج، ثم ساروا به دون جلبة وبلا جمهور يرافقه، بين جنديين أحدهما أمامه والآخر من خلفه، ثم ألقوا بالسلة والرجل الذي فيها في وسط الحقول خارج باريس، فيما وراء حي "سان جاك".. وكانت الساعة الثامنة صباحا في مطلع النهار

عندما وصلوا إلى هناك، وكانت هناك مقصلة "طازجة" لم تستعمل بعد أعدت خصيصا لهذا الرجل، وكان الذين شهدوا هذا المنظر بضعة غلمان صغار اجتمعوا على كومة أحجار قريبة حول تلك الآلة التي نصبت على غير انتظار.. ثم أخرج الرجل من السلة في سرعة، ودون أن تتاح له أية فرصة ليلتقط أنفاسه، ثم قطع رأسه خلسة في صورة تنطوي على الخيانة والعار! وهذا هو ما يسمونه "عملا رسميا وعاما من أعمال العدالة الكبرى"، فيا لها من سخرية دنيئة!

فكيف إذن يفهم رجال الملك كلمة المدنية؟ وفي أي عصر نعيش؟ ان العدالة قد انحطت حتى أضحت حيلا وخططا فيا للشناعة!

إن الشخص المحكوم عليه بالاعدام إذن شئ مخيف للغاية يخشى المجتمع بأسه، ويأخذ حذره منه إلى هذا الحد وعلى هذا النحو!

ومع ذلك، فلنكن منصفين! ذلك أن تنفيذ عقوبة الاعدام لم يكن بطريقة سرية تماما. ففي الصباح، نادى المنادون كالمعتاد، وبيع حكم الاعدام في شوارع باريس وميادينها.. ويبدو أن هناك أناسا يعيشون من بيع هذه الأشياء، فهل تسمعون؟ إنهم يتخذون من جريمة انسان سيئ الحظ ومن عقابه وعذابه واحتضاره سلعة تباع الورقة منها بدرهم! فهل في وسعكم أن تتخيلوا شيئا أكثر قبحا من هذا الدرهم الملطخ بالدم؟ فمن ذا الذي يلتقطه إذن من بينكم؟

تلك وقائع كافية، كافية أكثر مما ينبغي.. أليس هذا كله شيئا مروعا؟

فماذا لديكم تستطيعون به أن تؤيدوا عقوبة الاعدام؟

إننا نلقي عليكم هذا السؤال بصورة جدية، نلقيه عليكم كي تجيبونا عنه. إننا نوجهه إلى علماء الجريمة لا إلى المثقفين الثرثارين، فنحن نعلم أن هناك من يؤيد عقوبة الاعدام، لا لشئ إلا ليخالف بذلك رأي الغير كما يفعل في كل شئ. وأن هناك آخرين لا يحبون عقوبة الاعدام إلا لأنهم يكرهون زيدا أو عمرا ممن يهاجمونها، فهي بالنسبة اليهم مسألة كلام.. مسألة أشخاص.. مسألة أفراد يسمون فلانا وفلانا. هؤلاء هم الحساد، وكثيرون منهم من المشرعين ومن كبار الفنانين، ومثلهم كمثل "جوزيف جريبا" في معارضته "لفيلانجييري"، وكمثل "توريجياني" في نقده "لمايكل انجلو"، وكمثل "سكوديري" في تحديه للكاتب المسرحي "كورني".

إننا لا نتوجه بالحديث إلى هؤلاء الناس، وإنما إلى رجال القانون بمعنى الكلمة، وإلى المفكرين وذوي المنطق السليم، إلى أولئك الذين يحبون عقوبة الاعدام لأنها عقوبة الاعدام، يحبونها لجمالها وطيبتها وحسنها!

هيا إذن.. فليدلوا بدلوهم، وليقدموا لنا حججهم..

يقول الذين يحاكمون غيرهم ويصدرون عليهم الأحكام ان عقوبة الاعدام أمر ضروري، أولا: "لأن من الضروري أن نبتر من المجتمع عضوا قد أساء إليه من قبل وقد يسئ إليه بعد ذلك". فإذا كان الأمر مقصورا على ذلك فالسجن المؤبد يكفي. فلماذا الموت إذن؟ أتفترضون أنه يمكن الفرار من السجن؟ حسنا.. فلتشددوا الحراسة. فإن كنتم لا تثقون من متانة القضبان الحديدية،

فكيف تتجرءون على أن تحبسوا وراءها الوحوش الضارية؟

ليس ثمة ما يدعو إلى وجود الجلاد ما دام السجان يكفي، ولكنهم يستطردون فيقولون: "أن المجتمع يجب أن يثار لنفسه وأن يعاقب". "كلا، لا هذا ولا ذاك، فالثأر شئ فردي، أما العقاب فبيد الله".

والمجتمع بين اثنين: العقاب فوق المجتمع، والانتقام أقل منه. الأول كبير للغاية، والثاني صغير للغاية، وكلاهما لا يلائمه. ومن واجب المجتمع ألا "يعاقب لينتقم"، بل أن "يصلح ليصل إلى ما هو أحسن".. فغيروا إذن صيغة علماء الاجرام على هذا النحو، فنحن تفهمها ونقبلها على هذا التعديل.

يبقى السبب الثالث والأخير، وهو نظرية ضرب المثل: "يجب أن يضرب المثل الرادع!.. يجب الارهاب بمنظر المصير الذي ينتظر المجرمين، نلقي به الخوف في قلوب الذين يميلون إلى محاكاتهم!".. إن هذه العبارة تكاد تكون بالحرف الواحد تلك الجملة الخالدة التي يرددها ممثلوا الاتهام في "النيابات" الخمسمائة الموجودة في انحاء فرنسا مع تغيير طفيف رنان!

حسنا.. إننا ننكر أولا أن هناك مثلا وعبرة، ننكر أن منظر التعذيب يأتي بالنتيجة المرجوة منه، فهو بدلا من أن يهذب الشعب، يضعف من روحه المعنوية ويقتل لديه كل شعور، وبالتالي كل فضيلة. والأدلة على هذا كثيرة، يزدحم بها استدلالنا لو أردنا أن نذكرها. ومع ذلك فسوف نسوق واقعة من بين ألف واقعة، ذلك لأنها وقعت حديثا جدا ونحن نكتب، منذ

عشرة أيام فقط، وهي ترجع على التحديد إلى يوم ٥ مارس الماضي، يوم المهرجان، فقد حدث في مدينة "سان بول"، عقب اعدام رجل يدعى "لويس كامي" مباشرة، وكان قد ارتكب جريمة حريق، حدث أن جاء نفر من الملثمين ليرقصوا حول المشنقة وهي لا تزال ساخنة، وكان ذلك في يوم من أيام الاعياد المسيحية!.. فاضربوا المثل إذن التماسا للعبرة!

نعم، نعم.. إنكم تستمسكون بنظريتكم الروتينية في المثل رغم التجربة. فلنعد إذن إلى القرن السادس عشر، وعليكم أن تكونوا مرعبين حقا! أعيدوا مختلف أنواع التعذيب.. أعيدوا الينا "فاريناتشي" والأشخاص الذين كانوا يكلفون رسميا بالتعذيب.. أعيدوا لنا الصلب والحرق وتمزيق الأوصال واقتلاع الأظافر وقطع الاذن ودفن المرء حيا وغلى أعضاء الجسم والمرء حي يعيش!! أعيدوا لنا عند كل ناصية في شوارع باريس، منظر الجلاد البشع كأنه حانوت جديد مفتوح كبقية الحوانيت، ومزود بصفة مستمرة باللحم الآدمي الطازج! أعيدوا الينا ساحة الاعدام التي كانت مهيأة في "مونفوكون" بقواعدها الحجرية الست عشرة، وجلاديها الجالسين و"بدروماتها" المملوءة بالعظام، وألواح التعذيب الخشبية، و"كلاباتها"، وسلاسلها، وخوازيقها، وغربانها التي تنهش جثثها العفنة!! نعم، أعيدوا ساحة الاعدام هذه مع الشانق الملحقة بها ورائحة الجثث النتنة التي كانت رياح الشمال الغربي تنقلها وتحملها معها على طول حي "التامبل" في ضواحي باريس!! أعيدوا إلينا صبي جلاد باريس العظيم في

قوته وسطوته واستمراره وجبروته!.. حسنا!.. هذا هو مثلكم بصورة مكبرة!! هذه هي عقوبة الاعدام مفهومة فهما جيدا. إنها طريقة للتعذيب على نطاق واسع، وهذا هو الشئ الشنيع المروع!

أوه! افعلوا ما يفعلونه في انجلترا ففي انجلترا – وهي بلاد التجارة – يأخذون مهربا إلى ساحل "دوفر" حيث يشنقونه ضربا للمثل، ولضرب المثل أيضا يتركونه معلقا في حبل المشنقة! ولكن، نظرا إلى أن تقلبات الجو قد تتلف الجثة، فإنهم يغلفونها في عناية بقماش مدهون بالقطران، وذلك حتى لا يضطرهم الأمر إلى تجديد هذا الغلاف إلا أقل عدد ممكن من المرات.. فياله من بلد يتوخى الاقتصاد! بلد يطلون فيه المشنوقين بالقطران!

ومع هذا، فإن ذلك فيه شئ من المنطق، فهو أكثر الطرق انسانية لفهم نظرية المثل.

ولكن أنتم.. أصحيح أنكم جادون حقا، إذ تعتقدون أنكم تضربون مثلا حين تقطعون رقبة انسان بائس، بطريقة تعسة في ركن قصي مهجور من مشارف العاصمة؟ قد يكون هذا مقبولا لو أنه تم في ساحة الاعدام، وفي وضح النهار! ولكن، أن يحدث ذلك في حقول ضاحية من ضواحي باريس في "سان جاك"؟.. وفي الثامنة صباحا والنهار لم يكد يطلع بعد؟ من ذا الذي يمر من هناك؟ ومن ذا الذي يرى ذلك؟ ومن ذا الذي يعرف أنكم تقتلون رجلا في ذلك المكان؟ ومن ذا الذي يشك في أنكم تضربون

مثلا هنالك؟ مثلا لمن؟ لأشجار الطريق طبعا!

أفلا ترون إذن أن تنفيذكم لحكم الاعدام علنا يتم خلسة؟ أفلا ترون إذن أنكم تختبئون؟ وأنكم تخافون وتخجلون من فعلتكم؟ وأنكم تتمتمون على نحو يدعو إلى السخرية قائلين أن هذه هي العدالة؟ إنكم في الواقع خجلون وجلون أيها السادة، ومزعزعون قلقون، وغير واثقين من أنكم على حق، وأن الشك الذي لدى الجميع قد تسرب إلى نفوسكم، وأنكم تقطعون الرءوس على سبيل "الروتين" ودون أن تعرفوا تماما ما نفعلون! أفلا تشعرون في قرارة أنفسكم أنكم قد فقدتم على الأقل الشعور الأخلاقي والاجتماعي برسالة الدم التي كان اسلافكم القضاة العتاة يؤدونها بضمير مطمئن للغاية؟ وفي الليل؟ أفلا تقلبون على وسائدكم أكثر مما كانوا يتقلبون؟ إن آخرين من قبلكم قد أمروا بتنفيذ العقوبة القصوى، عقوبة الاعدام، غير أنهم كانوا يعتقدون أنهم على حق، وأنهم عدول وأنهم يحسنون صنعا. ان "جوفينيل ديزرسان" كان يعتقد أنه قاض، و"ايلي دي توريت" كان يعتقد أنه قاض، و"لو باردومون" و"لاينيي" و"لافوماس" كانوا يعتقدون أنهم قضاة.. أما أنتم.. أما أنتم فلستم موقنين تماما في قرارة أنفسكم أنكم لستم قتلة!

إنكم تتركون ساحة الاعدام إلى ضاحية "سان جاك" وتفرون من الجمهور إلى العزلة، ومن النهار إلى الغسق، ولا تقومون بما تقومون به في ثقة وثبات. ولست أتردد في أن أقول لكم: أنكم تختبئون!

هذه هي كل الأسباب التي تنتحلوها لعقوبة الاعدام قد تحطمت إذن، وهذا هو منطق ممثلي الاتهام بأسره قد أصبح عدما، وهذه كل مرافعات النيابة قد فندت فصارت رمادا. ان أقل لمسة من المنطق لابد أن تذيب كل تفكير معوج.

إنه لا ينبغي إذن أن يأتينا رجال الملك بعد الآن يطالبوننا – نحن المحلفين – برءوس جديدة، نحن الرجال، وهم يرجوننا في صوت يداعبنا باسم المجتمع الذي تجب حمايته، وباسم الثأر للشعب، أن نضمن لهم ضرب المثل الرادع. إن هذا كله ليس إلا بلاغة وكلاما أجوف، ليس إلا مجرد بالون منفوخ تكفي وخزة بسيطة من دبوس، كي تحيله إلى لا شئ، إذ ليس وراء هذه الثرثرة الحلوة غير قسوة القلب والشراسة والهمجية، والرغبة في اظهار التحمس للعمل وضرورة كسب العيش. اصمتوا أيها السادة، فإننا نحس بمخالب الجلاد تحت أنامل القاضي الحريرية!

إنه ليشق علينا أن نفكر في برود في أمر مدع عام جريء. إنه رجل يكسب عيشه بارسال الآخرين إلى المشنقة، فهو المورد الرسمي لساحات الاعدام! ومن ناحية أخرى، فهو رجل يزعم لنفسه الأسلوب الأدبي الجميل، وهو ذلق اللسان، أو يحسب أنه كذلك، ويردد عند الحاجة بيتا أو بيتين من الشعر اللاتيني قبل أن يسوق إنسانا إلى الموت، ويحاول جاهدا أن يحدث في مستمعيه التأثير الذي يريده، وهو شديد العناية بأمر كرامته – يا للشقاء! هذا في الوقت الذي تكون فيه حياة الآخرين في الميزان! أن

لهذا المدعي العام نماذج، نماذج خاصة يتعذر على المرء أن يبلغ مستواها، مثل "بلار" و"مارشانجي" تماما كما يكون للشعراء نماذج تحتذي مثل "راسين" أو "بوالو". وفي المناقشات التي تدور في المحكمة، تراه يجنح دائما إلى ناحية المقصلة، ولا غرو فهي دوره، وهي شغله الشاغل. الاتهام الذي يوجهه إنما هو عمله الأدبي الذي يزينه بالاستعارات، ويعطره بالنصوص، يستشهد بها كي يظفر باستحسان الحاضرين في الجلسة، وينتزع اعجاب السيدات، ولديه ذخيرة من الأفكار الشائعة التي لا تزال جديدة تماما على البيئات الريفية، وله بلاغته في التعبير، وأسلوبه الرقيق المصطنع الذي يشبه في رقته أساليب الكتاب.

إنه يكره الكلمة الخالية من الاستعارة، مقتا يداني المقت الذي يضمره لها شعراؤنا المنتمون إلى مدرسة "دوليل" فلا تخشوا إذن أن يسمي الأشياء بأسمائها فذلك لن يحدث، إذ أن لديه قناعا كاملا من النعوت والصفات لكل فكرة يمكن أن تثيركم وهي مجردة عارية. أن في وسعه أن يجعل الأمر المفزع مقبولا، ويخفف من حدة سكين المقصلة، ويوازن الميزان، ويغلف السلة الحمراء في غلالة رقيقة من الاستعارات. انه رقيق ومتحفظ، فهل تتصورونه بالليل في مكتبه، وهو يتأنق في اعداد هذه الخطبة التي ستنصب بسببها المشنقة بعد ستة أسابيع؟ هل ترونه وهو يعرق دما وماءكي يحاصر رأس متهم في أسوا بند من بنود القانون؟ وهل تبصرونه وهو "ينشر" رقبة انسان بائس بمنشار قانون أسئ صنه؟ ألم تلاحظوا كيف

ينقع ثلاثة نصوص أو أربعة سامة في نبض من العبارات البليغة، كي يعبر بها، ويستخرج منها بجهد جهيد موت انسان؟ أفلا يحتمل أن يكون الجلاد قاعدا القرفصاء عند قدميه في الظلام، تحت مكتبه وهو جالس يكتب، وأنه قد يكف عن الكتابة بين آن وآخر، ليقول له كما يقول السيد لكلبه: "اهدأ اهدأ، فسوف تنال عظمتك!".

ومن ناحية أخرى، فقد يكون رجل الادعاء هذا في حياته الخاصة رجلا شريفا، وأبا عطوفا، وابنا صالحا، وصديقا وفيا.. إلى غير ذلك مما تذكر العبارات الطيبة المنقوشة على لوحات القبور في مدافن "لاشيز".

فلنأمل اذن أن يأتي اليوم الذي يلغي فيه القانون هذه الوظائف المحزنة، وجو حضارتنا وحده هو المسئول عن القضاء على عقوبة الاعدام في فترة معينة من الزمن.

ويغلب على ظننا في بعض الأحيان أن الذين يدافعون عن عقوبة الاعدام لم يفكروا فيها فيحسنوا التفكير. ولكن، ضعوا إذن بعض الجرائم في الميزان، فهذا القانون العنيف يخول للمجتمع الحق في أن يسلب من الانسان شيئا لم يمنحه إياه، وهذه العقوبة إنما هي أكثر العقوبات التي لا يمكن إصلاح نتائجها وأشدها استعصاء على الاصلاح!

ذلك أن أمامكم أمرين لا ثالث لهما:

فإما أن يكون الرجل الذي تقضون على حياته لا أسرة له ولا أهل ولا روابط في هذا العالم، وفي هذه الحالة لا يكون قد تلقى تربية أو تعليما أو عناية ما،

بنفسه أو بقلبه.. فبأي حق إذن تقتلون هذا اليتيم البائس؟ أتعاقبونه لأنه كان يزحف في طفولته على أرض لا سند له فيها ولا مرشد ولا معين؟ إنكم تعاقبونه إذن على العزلة التي تركتموه يهيم فيها على وجهه، وتجعلون من مصيبته هذه جريمة، وهو الذي لم يعلمه أحد ماذا كان عليه أن يفعل؟ إنه رجل جاهل، والخطأ ليس خطأه ولكنه خطأ القدر.. إنكم تعاقبون بريئا!

وإما أن هذا الرجل ذو أسرة. فهل تحسبون عندئذ أن الضربة التي تقطعون بها رقبته لا تصيب إلا اياه؟ وأن أباه، وأمه، وأولاده لن يقطروا دما كذلك؟ كلا، فأنتم بقتله إنما تقطعون رقبات أسرة بأسرها. فأنتم هنا كذلك تعاقبون الأبرياء!

إن عقوبة الاعدام عقوبة شاذة عمياء، على أي وجه نقلبها نجدها تصيب البرئ!

إسجنوا هذا الرجل، هذا المذنب الذي له أسرة، فسوف يستطيع وهو في سجنه أن يتابع العمل من أجل ذويه، إذ كيف يكون في وسعه أن يعولهم وأن يجعلهم يعيشون وهو راقد في قاع قبره؟ ترى هل تفكرون دون أن تأخذكم الرجفة فيما سيئول إليه أمر هؤلاء الأولاد الصغار، والبنات الصغيرات الذين تنتزعون منهم والدهم، أعني لقمة العيش! أم هل تعولون على هذه الأسرة لتزودوا بها الليمان بعد خمسة عشر عاما؟ آه! يا للأبرياء المساكين!

عندما يصدر حكم بالاعدام على عبد رقيق في المستعمرات، فإنهم

يدفعون لصاحبه ومالكه تعويضا مقداره ألف فرنك! ماذا أيها السادة؟ إنكم تعوضون خسارة السيد ولا تعوضون الأسرة شيئا! وهنا أيضا بالله عليكم، الا تنتزعون رجلا من بين ذويه أصحاب الحق فيه؟ أو ليس هو ملكا لوالده ولزوجته ولأبنائه إلى حد يبلغ في القداسة أكبر كثيرا من درجة ملكية السيد لعبده؟

لقد سبق لنا أيها السادة أن اتهمنا قانونكم هذا بأنه اغتيال، وها نحن أولاء نتهمه الآن بأنه سرقة.

وثمة شئ آخر: فهل فكرتم في روح هذا الرجل؟ وهل تجرءون على ازهاقها بمثل هذه السرعة، وبمثل هذا الاستخفاف؟ فيما مضى، على الأقل، كان هناك شئ من الايمان في قلوب الناس، وفي اللحظة الحاسمة كانت نفحة الدين المنبثة في الهواء تلين أكثر القلوب قسوة وصلابة، فكان المحكوم عليه في نفس الوقت تائبا يكفر عن ذنب قد ارتكبه، وكان الدين يفتح أمامه عالما، في نفس اللحظة التي كان المجتمع فيها يغلق في وجهه عالما آخر. كانت النفوس جميعا تثق بالله، ولم تكن المشنقة إلا حدا من حدود السماء. أما الآن، فما هو الأمل الذي يضعونه في مشنقة لا تؤمن بها الغالبية العظمى من الجماهير؟

ليست هذه من غير شك إلا "أسبابا عاطفية" كما يقول بعض الذين يزدرون العاطفة ولا يستمدون منطقهم إلا من رءوسهم، غير أنها في نظرنا هي أفضل الأسباب، ونحن غالبا ما نفضل الأسباب العاطفية على العقلية.

ويجب علينا ألا ننسى من جهة أخرى أن النوعين يتساندان على الدوام، فكتاب "قانون الجرائم" مأخوذ من كتاب "روح القوانين"، و"مونتسكيو" هو الذي أنجب "بيكاريا".

ان المنطق معنا، والعاطفة معنا، والتجربة تؤكد وجهة نظرنا كذلك. ففي الدول النموذجية حيث ألغيت عقوبة الاعدام، أخذ مجموع الجرائم الكبرى يقل باطراد عاما بعد عام، فأدخلوا هذا في حسابكم.

ومع ذلك، فإننا لا نطالب في الوقت الحاضر بإلغاء عقوبة الاعدام الغاء تاما وبطريقة فجائية على النحو الطائش الذي اتبعه مجلس النواب، بل نريد، على العكس، أن نجرب كل المحاولات، وأن نتخذ كافة الاحتياطات، وأن نلزم في هذا الحذر كل الحذر. ومن جهة أخرى، فإننا لا نريد الغاء عقوبة الاعدام فحسب، وإنما نريد كذلك تعديلا شاملا لكل أنواع العقوبات من أولها إلى آخرها، من الحبس البسيط إلى المقصلة، مع ملاحظة أن الزمن يعتبر أحد العوامل التي تجب مراعاتها في عمل كهذا، حتى يتم على الوجه الأكمل. وفي نيتنا أن نكتب المزيد في هذا الموضوع شارحين الطرق والأفكار التي تبدو في نظرنا عملية ممكنة التطبيق. ولكن، إذا استثنينا إلغاء حكم الاعدام جزئيا في حالات تزييف النقد، والحريق، والسرقة المصحوبة بظروف مشددة، إلى غير ذلك، فإننا نطالب منذ الآن، وفي جميع القضايا الكبيرة، بأن يلتزم رئيس المحكمة بأن يسأل المحلفين هذا السؤال: هل ارتكب المذنب جريمته بدافع من العاطفة أو بدافع المنفعة؟

فإذا جاء رد المحلفين بأن "المتهم قد ارتكب ما ارتكب بدافع العاطفة" فيجب ألا يصدر عليه حكم بالاعدام، فهذا كفيل على الأقل بأن يبعد عنا بعض أحكام الاعدام التي تثير نفوسنا، وكان ذلك خليقا بأن ينقذ حياة كل من "أولباخ" و"ديباكير"، وهو خليق كذلك بأن ينقذ رقبة من يقف موقف "عطيل" Othello في المستقبل.

ومن جهة أخرى، فإننا يجب ألا نخدع، فمسألة عقوبة الاعدام هذه تنضج يوما بعد يوم، وسوف يحلها المجتمع بأسره، كما نفعل، قبل انقضاء وقت طويل. فليحذر علماء الجريمة المعاندون، فقد أخذت أحكام الاعدام تتناقض منذ قرن من الزمان، وأخذت تجنح تقريبا نحو شئ من اللين والحنان، وهذا نذير شيخوخة واضمحلال. انه علامة من علامات الضعف، علامة موت قريب. لقد انتهى زمن تعذيب المسجونين وربطهم على العجلة، وولى عصر صلب المحكوم عليهم.. بل أن المقصلة ذاتها عبارة عن تقدم!.. إن هذا لشئ عجيب! لقد كان "السيد جيوتان" إنسانا خيرا حقا!

نعم.. إن هذه الآلة ذات الأسنان والتروس الرهيبة التي التهمت عددا ضخما من الرءوس – آلة "فارمناتشي" و"فوجلانس" و"دولانكر" و"ايزاك لوازيل" و"أوبيد" و"ماشوه" – هذه الآلة قد بدأت تضمحل.. بدات تهزل.. بدأت تموت!!

ها هي ذي ساحة الاعدام لا تريدها، لأن هذه الساحة تريد أن ترد

لنفسها اعتبارها.. ان شاربة الدماء العجوز قد سلكت في شهر يوليو سلوكا حسنا، فهي تريد منذ الآن أن تحيا حياة أفضل، وأن تظل جديرة بصنيعها الأخيرة.. إن الحياء يعود إليها وهي التي كانت قد حلت محل المشانق من ثلاثة قرون، فهي تخجل من مهنتها السابقة، وتود أن تفقد اسمها البشع. إنها تطلق الجلاد.. وتغسل الدم من فوق "بلاطها".

وفي هذه الساعة، تنفذ عقوبة الاعدام خارج باريس! فلنقلها هنا إذن بصراحة، فخروجها من باريس يعني خروجها من المدنية.

إن جميع الأعراض في صالحنا، ويبدو كذلك أن هذه الآلة البشعة، أو بالأحرى هذا الوحش المصنوع من الخشب والحديد، والذي هو تحفة الدكتور "جيوتان" يبدو أن هذه الآلة تغدر وتقاوم. إننا إذا نظرنا من زاوية معينة إلى هذا العدد من أحكام الاعدام الرهيبة التي نفذت وسردنا تفاصيلها آنفا، لوجدنا أنها تعتبر دلالات ممتازة، فالمقصلة تتردد وتحجم وتقصر في تأدية وظيفتها، وها هو ذا بناء عقوبة الاعدام العتيد العتيق بأسره قد أخذ يتفكك ويتداعى، وسوف ترحل هذه الآلة البغيضة من فرنسا، فنحن نقدر ذلك تقديرا ونعول عليه، وهي سوف ترحل عرجاء، بإذن الله، لأننا سنحاول جاهدين أن نوجه إليها ضربات قاصمة، فلتذهب إذن عند قوم آخرين، لتذهب عند شعب همجي يقبل أن يستضيفها.

لقد كان البناء الاجتماعي يرتكز فيما مضى على ثلاث قواعد هي: القسيس والملك والجلاد. ومنذ زمن بعيد. ارتفع صوت يقول: "لقد ذهب

سلطان الأساقفة!".. وفي السنوات الأخيرة صاح صوت آخر يقول: "إن الملوك ذهبوا!".. والآن، حان الوقت ليرتفع صوت ثالث ويقول: "إن الجلاد راحل!"

وهكذا، يكون المجتمع القديم قد انهار حجرا بعد حجر، وتكون العناية الالهية قد قوضت أركان الماضي بأسره، إن الذين ندموا على تقلص نفوذ الدين، استطعنا أن نقول لهم: إن الدين باق، والذين يندمون على ذهاب الملوك نستطيع أن نقول لهم: إن الوطن باق. أما الذين سيندمون على ذهاب الجلاد فليس لدينا ما نقوله لهم.

ولا يحسبن أحد أن النظام سوف يختفي باختفاء الجلاد، فسوف لا تتداعى عمد المجتمع الجديد لأن هذا المفتاح البشع المشئوم ينقصها، وليست المدنية إلا سلسلة من التغييرات المتتابعة، فماذا أنتم واجدون عندئذ؟

إنكم ستشهدون تغيير العقوبات، وسوف يدخل قانون المسيح الرحيم أخيرا في اللوائح المعمول بها في المحاكم ويشع من نوره عليها. إننا سننظر إلى الجريمة على أنها مرض، وسوف يكون لهذا المرض أطباؤه الذين سيحتلون أماكن قضاتكم، ومستشفياته التي ستحتل أماكن ليماناتكم.. إن الحرية والصحة ستجتمعان معا.

نعم، إننا سنصب البلسم والزيت حيث كان يطبق الحديد والنار. وسوف نعالج هذا المرض بالرحمة والاحسان بعد أن كان يعالج بالغضب والانتقام.

وسوف يكون ذلك بسيطا ورائعا حقا، فالاحسان يحل مكان الانتقام، والرحمة تحل محل القتل، وهذا كل ما نهدف إليه.

ڤيكتور هيجو

في ١٥ مارس عام ١٨٣٢

الفصل الأول

قضيتي

في سجن "بيستر"..

محكوم علي بالاعدام!

آه! ها قد مضت على خمسة أسابيع وأنا أقيم وحدي مع هذه الفكرة، وحدي دائما، أتجمد رهبة لوجودها معي، وأرزح تحت وطأتها على الدوام!

وقديما، كنت رجلا كأي رجل آخر. وأقول "قديما" لأن هذه الأسابيع الخمسة تبدو لي وكأنها دهر طويل! كانت لدي في كل يوم فكرة، بل في كل ساعة، وفي كل دقيقة، وكانت نفسي الغنية الشابة حافلة بالنزوات والتصورات، تتسلى بأن تسردها على واحدة بعد أخرى، بلا ترتيب وبلا نهاية، وهي تطرز بالنقوش التي لا تنتهي هذا القماش الرفيع المتين الذي تنسجه الحياة.

كان رأسي وقتئذ عامرا بالفتيات الشابات، وبملابس المطارنة البديعة، وبالمعارك الرابحة، والمسارح التي تغمرها الضوضاء والأضواء. وكان عامرا كذلك بالفتيات الصغيرات وبنزهات في ظلام الليل الداجي تحت أغصان شجر الكستناء الطويلة. لقد كان في خيالي عيد دائم وكنت

أستطيع أن أفكر فيما أريد في أي وقت.. فقد كنت حرا!

أما الآن فإني أسير. فجسمي مكبل بالحديد في زنزانة، ونفسي سجينة في فكرة مروعة دامية لا ترحم! ولم يعد لدي سوى فكرة واحدة، سوى اقتناع واحد ويقين واحد: إني محكوم علي بالاعدام!

ومهما فعلت، فإن هذه الفكرة الرهيبة هنا دائما، إلى جواري، وكأنها شبح جهنمي من الرصاص يقف غيورا بمفرده أمامي أنا البائس، ويواجهني وجها لوجه، فيطرد عني كل تسلية ويهزني هزا عنيفا بيدين في مثل برودة الثلج كلما أردت ان أدير رأسي أو أن أغمض عيني. إن هذه الفكرة المفزعة تتسلل إلي بكل الطرق، في الوقت الذي تريد نفسي فيه أن تهرب منها، وتمتزج كنغمة رهيبة بكل الالفاظ التي توجه إلي، وتلتصق بي في أسوار زنزانتي الكئيبة، وتطاردني في يقظتي، وتتجسس علي في منامي المضطرب، ثم تظهر مرة أخرى في أحلامي في صورة سكين!

لقد استيقظت الآن فزعا بسببها وأنا أقول في نفسي: "إنه ليس إلا حلما!".. حسنا! فحتى قبل أن تجد عيناي الثقيلتان متسعا من الوقت كي تنفتحا تماما لتريا هذه الفكرة المحتومة مكتوبة في هذا الواقع المروع الذي يحيط بي على بلاط زنزانتي الرطب المبلل، وفي ضوء مصباحي الليلي الخافت، وفي نسيج ردائي الخشن الردئ، وعلى وجه الحارس المظلم الذي كانت "زمزميته" تلمع من خلال القضبان الحديدية، حتى قبل أن تجد عيناي الثقيلتان متسعا من الوقت لتريا كل ذلك، فقد بدا لي أن صوتا قد

همس في أذني يقول: "أنت محكوم عليك بالاعدام!".

كان ذلك في صبيحة يوم جميل من أيام شهر أغسطس، وكان قد مضى على موعد بدء نظر قضيتي ثلاثة أيام. كان اسمي وجريمتي يجمعان خلالها في كل صباح جمعا غفيرا من المتفرجين، كانوا يتهافتون على المقاعد في قاعة الجلسة كما تتهافت الغربان على جثة عفنة! ثلاثة أيام كانت استعراضات القضاة والشهود والمحامين، وممثلي الاتهام باسم الملك، تمر خلالها ثم تمر من أمامي، فتثير السخرية تارة، وتارة تكون دامية، ولكنها كئيبة ومعتمة على الدوام.

ولم أستطع أن أنام في الليلتين الأوليين من أثر القلق والرعب، ولكني نمت في الليلة الثالثة من الضيق والكلل. وكنت قد تركت المحلفين وهم يتداولون في منتصف الليل فأعادني الحراس إلى زنزانتي حيث سقطت من فوري، أتى السجان ليوقظني. وفي تلك المرة، لم يكن وقع قدميه الثقيلتين بحذائه الغليظ، ولا صليل رزمة المفاتيح التي كان يحملها دائما معه، ولا قرقعة الاقفال الخشان، لم يكن هذا كله كافيا لايقاظي، وإنما كان عليه أن يستعين بصوته الجهوري الخشن النبرات لينتزعني من نومي المحموم، وأن يقبض على ذراعي ليهزني بيده الغليظة وهو يقول لي في ارهاب:

– قم إذن!

ففتحت عيني وانتفضت مذعورا لأجد نفسي جالسا على القش! وفي تلك اللحظة، رأيت من خلال النافذة الضيقة المرتفعة في زنزانتي،

قطعة السماء الوحيدة التي كان يمكنني أن أراها من بعيد، ورأيت هذا الضوء الأصفر الذي يبدو شمسا للأعين، التي ألفت ظلام السجون.. لشد ما أحب الشمس!

وتمتمت أقول للسجان:

– إن الطقس جميل!

فمكث الرجل صامتا لحظة دون أن يرد علي بحرف، وكأنه كان يسائل نفسه عما إذا كان هذا الذي أمامه يستحق منه أن يقول له أية كلمة، ثم غمغم يقول فجأة في شئ من الجهد:

– هذا محتمل.

وبقيت بغير حركة، وروحي نصف نائمة، وفمي يبتسم وعيناي لا تتحولان عن هذا الشعاع الذهبي الرقيق الذي كان يزين السقف.. وعدت أكرر قائلا:

– هذا يوم جميل

فأجابني السجان قائلا في حزم:

– نعم.. إنهم ينتظرونك.

فنقلتني هذه الكلمات القليلة، التي تشبه الخيط الذي يقطع طيران الحشرة، في عنف إلى عالم الحقيقة والواقع.

وفجأة رأيت في مثل وميض البرق قاعة محكمة الجنايات المعتمة، وقفص الاتهام، وثلاثة صفوف من الشهود تنطق وجوههم بالغباء، والجنديين الواقفين عن يميني وشمالي "والأرواب" السوداء تتحرك هنا وهناك، ورءوس المتفرجين تبدو كالنمل عند نهاية القاعة في الظل، وأعين هؤلاء المحلفين الأثنى عشر المثبتة علي، الذين سهروا بينما كنت نائما!

ونهضت من فوق القش، وأسناني تصطك، ويداي ترتجفان، ولا تعرفان أين تجدان ملابسي؟ وكانت ساقاي متخاذلتين، لا تقويان على حملي، فتعثرت عند أول خطوة خطوتها وكأني جمال يحمل حملا فوق طاقته، ومع ذلك فقد تبعت السجان، وكان الجنديان في انتظاري على باب الزنزانة. وما كدت أخرج منها حتى وضعا في يدي قيدا حديديا له قفل صغير معقد، أقفلاه في عناية، فتركتهما يفعلان، فقد كان قيدي آلة توضع فوق آلة.

* * *

واجتزنا فناء السجن الداخلي، فبعث هواء الصباح المنعش في أوصالي شيئا من النشاط، ووجدت نفسي أرفع رأسي إلى أعلى. كانت السماء صافية الأديم، وكانت أشعة الشمس الدافئة التي تقطعها المداخن المرتفعة ترسم مثلثات كبارا من الضوء من فوق جدران السجن المعتمة العالية. لقد كان الجو جميلا حقا.

وصعدنا سلما حلزونيا ثم مررنا خلال دهليز من بعده دهليز آخر،

ثم ثالث، حتى انتهينا إلى باب منخفض فتح على الفور، فلفح وجهي هواء ساخن تختلط فيه الضوضاء. كان هذا هو جو أنفاس المحتشدين في قاعة محكمة الجنايات.

وما كدت أبدو حتى حدثت ضوضاء صادرة من قعقعة الأسلحة المختلطة بأصوات الحاضرين، وتحركت المقاعد في جلبة عالية، وفتحت الحواجز محدثة صريرا كئيبا، وكان يبدو لي وأنا أعبر القاعة الطويلة بين كتلتين من الجماهير، وصفين من الجنود، أنني كنت المركز الذي ترتبط به الخيوط التي كانت تحرك كل تلك الوجوه المتيقظة المشرئبة نحوي.

ولاحظت في تلك اللحظة أني لم أكن مكبلا بالحديد، لكني لم أستطع أن أذكر أين أو متى كانوا قد نزعوا عني قيدي؟

وساد عندئذ صمت عميق. وكنت قد وصلت إلى مكاني حينما سكنت الضوضاء الصادرة من الجمهور، فسكتت أيضا الضوضاء التي كانت تدور مع أفكاري، وفهمت من فوري في وضوح ما لم أكن أتصوره إلا مشوشا غامضا منذ لحظات: أدركت أن اللحظة الحاسمة قد حانت وأني أحضرت إلى هناك لسماع النطق بالحكم علي.

وليشرح ذلك من يستطيعه منكم، فإن الطريقة التي أوحت إلي بهذه الفكرة لم تبعث في نفسي الرعب! كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها، وضوضاء المدينة تصل مع الهواء من الخارج دون حائل. وكانت القاعة مضيئة كما لو كان يحتفل بعرس وكانت أشعة الشمس المرحة ترسم صورا

لمصاريع النوافذ هنا وهناك، تارة طويلة جدا على أرض القاعة ومكسورة تارة أخرى عند زوايا الجدران.

وكان القضاة جالسين في نهاية القاعة وقد ارتسمت على وجوههم علامات الرضا والامتنان، وربما كان السبب في ذلك هو سرورهم بأنهم كانوا على وشك الانتهاء. وكان انعكاس زجاج إحدى النوافذ يسقط على وجه رئيس المحكمة ويضيئه بعض الشئ فيبدو عليه شئ من الطيبة والهدوء، بينما أخذ أحد معاوني النيابة يتبادل حديثا يغلب عليه المرح مع سيدة جميلة ترتدي قبعة وردية اللون كان قد حاباها بإجلاسها خلفه مباشرة، وكان الرجل يتحدث إليها وهو يمسك بياقة روبه ويعبث بها.

وكان المحلفون وحدهم هم الذين تبدو على وجوههم آثار التعب الشديد، ولكن هذا فيما يبدو كان سببه أنهم قد سهروا الليل بأكمله، وكان بعضهم يتثاءب، ولم يكن في مظهرهم ما يدل على أنهم رجال كانوا قد قرروا لتوهم الحكم بالاعدام، ولم أقرأ في وجوه هؤلاء البورجوازيين الطيبين إلا رغبة كبرى في النوم.

وكان هناك أمامي نافذة مفتوحة على مصراعيها، كنت اسمع من خلالها بائعات الزهور وهن يضحكن على رصيف نهر "السين"، وعلى حافة ركن النافذة أدهشتني رؤية نبتة صغيرة صفراء يغمرها شعاع من الشمس وكانت تلعب مع الهواء في ثغرة من ثغرات حجر الجدار. فكيف يمكن أن تنبت فكرة كئيبة بين كثير من تلك الاحساسات الجميلة؟. لقد

كان يغمرني الهواء والشمس فكان يستحيل علي أن أفكر في شئ آخر غير الحرية. إن الأمل كان يشع في نفسي كما يشع من حولي ضوء النهار، وانتظرت النطق بالحكم علي وأنا مطمئن كما ينتظر المرء الخلاص والحياة.

ووصل المحامي الموكل بالدفاع عني في خلال ذلك، وكانوا في انتظاره. وكان الرجل قد تناول غداء فاخرا في شهية كبيرة، وما كاد يصل إلى مكانه حتى مال نحوي مبتسما وهو يقول:

– إنني آمل

فأجبته في خفة وأنا أبتسم أيضا:

– أليس كذلك؟

فقال المحامي:

– نعم، لست أعرف شيئا عن قرارهم بعد، ولكنهم قد استبعدوا فكرة سبق الاصرار دون شك، فلن تكون هناك حينئذ إلا الاشغال الشاقة المؤبدة.

فأجبته قائلا في سخط:

– ما هذا الذي تقول يا سيدي؟.. إني أوثر الموت مائة مرة!

نعم.. الموت! ومن ناحية أخرى، فإن صوتا داخليا لا أعرفه كان يكرر في نفسي هامسا: "ما الخطر الذي أتعرض له بقولي هذا؟ هل سبق أن نطق من قبل بحكم الاعدام إلا في منتصف الليل على ضوء الشاعل، وفي

قاعة معتمة سوداء في ليلة من الليالي الباردة، ليالي الشتاء المطيرة؟.. ولكن.. في شهر أغسطس، وفي الساعة الثامنة صباحا، وفي يوم جميل كهذا، ومع هؤلاء المحلفين الطيبين.. كلا، هذا مستحيل! وكانت عيناي ترتدان لتقعا على الزهرة الصفراء الجميلة وهي تتمايل في الشمس..".

وفجأة، دعاني إلى الوقوف رئيس المحكمة الذي لم يكن ينتظر سوى حضور المحامي، فوقف الجنود شاكي السلاح ووقف جميع الحاضرين في نفس اللحظة كما لو كان ذلك قد حدث بتأثير قوة كهربائية! وكان ثمة وجه جامد لا تعبير فيه يجلس إلى منضدة في أسفل هيئة المحكمة، وكان هذا على ما أظن كاتب الجلسة، الذي بدأ الكلام فأخذ يتلو القرار الذي كان المحلفون قد نطقوا به في غيبتي. ولم تكد كلماته تطرق أذني حتى انبثق من كل أعضائي عرق بارد واستندت إلى الجدار لأمنع نفسي من السقوط.

وقال رئيس المحكمة يسأل المحامي:

– هل لديك ما تقوله يا أستاذ خاصا بتطبيق العقوبة؟

وكنت أستطيع أنا أن أقول الكثير، غير أن ذهني ظل خاويا لم يخطر به شئ، وبقى لساني معقودا وملتصقا بحلقي، ونهض محامي الدفاع ففهمت أنه كان يحاول أن يخفف قرار المحلفين، بأن يستبدل بحكم الاعدام العقوبة الأخرى التي كنت قد أحسست بأن كرامتي قد جرحت حينما سمعته يتحدث عنها منذ لحظة كشئ يأمله، ولابد أن سخطي كان شديدا بحيث ظهر خلال المشاعر الكثيرة التي كانت تتضارب في خاطري، وأردت أن

أكرر للمحامي في صوت مرتفع ما كنت قد قلته له من قبل:

"إني أوثر الموت مائة مرة!"، غير أن أنفاسي تقطعت، ولم أستطع إلا أن أوقفه بجذبه من ذراعه في عنف وأنا أصيح فيه بقوة المحموم: "كلا!".

وقاوم المدعي العام المحامي بكل قواه، فكنت أستمع إلى نضاله في سرور ينطوي على الغفلة والغباء! وخرج القضاة بعد لحظات ثم عادوا ثانية إلى مقاعدهم، وقرأ رئيس المحكمة نص الحكم الذي سبق أن حكم به علي!

وقال جمهور الحاضرين: "محكوم عليه بالاعدام!".. وفي الوقت الذي كان الحراس يقودونني فيه إلى خارج قاعة الجلسة، اندفع كل هذا الجمهور من خلفي في دوي كأنه صوت بناء ينهار، بينما كنت أسير متعثرا في خطواتي كالثمل وقد تملكني الذهول! إن ثورة كانت قد انطلقت في نفسي منذ لحظة، وكنت أشعر حتى صدور الحكم بأنني أستنشق الهواء، وبأن قلبي ينبض، وبأني أعيش في نفس الوسط الذي يعيش فيه غيري من الناس. ولكني الآن كنت أميز في وضوح حاجزا يفصل بيني وبين العالم، ولم يكن يظهر لي شئ على نفس الصورة التي كان يبدو لي فيها من قبل: فهذه النوافذ العريضة المضيئة، وهذه الشمس الجميلة الحانية، وهذه السماء الزرقاء النقية، وهذه الزهرة الجميلة، كل ذلك بدا في عيني أبيض شاحبا بلون الكفن.. وهؤلاء الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يتزاحمون من حولي ويندفعون في طريقي كانوا يتراءون لي كالأشباح!

في العربة السوداء

هناك عربة قذرة سوداء مقفلة بقضبان من حديد تنتظرني عند أسفل السلم.. وألقيت وأنا أصعد إليها نظرة عابرة على الميدان، فرأيت المارة يعدون نحوها وهم يصيحون قائلين: "محكوم عليه بالاعدام!" واستطعت أن أميز من خلال السحابة التي كان يبدو لي أنها تفصل بيني وبين الأشياء، فتاتين شابتين كانتا تتابعاني بأعين نهمات، فقالت صغراهما وهي تصفق بيديها: "حسنا! سيكون تنفيذ الحكم فيه بعد ستة أسابيع!".

أنا محكوم علي بالاعدام!

حسنا! ولم لا؟ إني أذكر أنني قرأت ذلك في كتاب من الكتب لم يكن به شئ حسن سوى هذه العبارة: "إن البشر جميعا محكوم عليهم بالاعدام، وإنما يختلف وقت تنفيذ الحكم!" فماذا الذي قد تغير كثيرا إذن في موقفي؟

كم من أناس قد ماتوا بينما كانوا يعدون أنفسهم لحياة طويلة منذ اللحظة التي نطق فيها بالحكم علي؟ وكم من شباب حر في أوج الصحة قد سبقني وكان يعتزم الذهاب في اليوم المحتوم ليرى رأسي وهو يهوي في ساحة الاعدام! وكم من هؤلاء الناس الذين يمشون ويستنشقون نسيم الحرية وهم يخرجون ويدخلون على هواهم، كم من هؤلاء سوف يسبقني كذلك إلى عالم الموت!

ثم.. على أي شئ أندم في الحياة؟ أهو اليوم المظلم؟ أم هو الخبز الأسود في الزنزانة، مع الطعام الهزيل الذي يلقى إلي في الدلو، دلو المحكوم

عليهم بالاعدام.. أم الغلظة والمعاملة الفظة اللتان يعاملني بهما السجانون والحراس، وأنا الذي ربيت تربية مرهفة ناعمة؟ أم هو حرماني من رؤية أي مخلوق آدمي يعتقد أني أستحق أن يبادلني الحديث؟ أم أن أرتجف بغير انقطاع مما فعلته ومما سيفعلونه بي؟ أليس هذا تقريبا هو كل الخير الذي يستطيع الجلاد أن ينتزعه مني؟

آه! ولكن هذا لا يهم.. إنه شئ فظيع!

نقلتني العربة السوداء الرهيبة إلى هنا، في سجن "بيستر" البشع، وهو مبنى يبدو على مظهره بعض العظمة عند رؤيته من بعيد، فهو يظهر في الأفق على جبهة تل، ويحتفظ بشئ من روعته الملكية السابقة إذا نظرت إليه من بعيد، ولكنه يصير كوخا حقيرا عندما تقترب منه! فأبراجه التي سقطت تحت مستواها الأصلي تجرح بمنظرها العين، ولست أدري أي شئ حقير مخجل لطخ واجهاته الملكية بالقذارة، إذ تبدو كأن جدرانها مصابة بالجذام، ونوافذه لم يبق بها زجاج ولا مصاريع، ولكنه كتل ضخمة من قضبان حديدية متقاطعة يلتصق بها هنا وهناك وجه شاحب يبدو عليه الشرود، وجه لشخص محكوم عليه أو وجه لشخص مجنون!

إنها الحياة من قرب!

العودة إلى بيستر

ما كدت أصل إلى سجن "بيستر" حتى تلقفتني أيد حديدية، وضوعفت الاحتياطات في الحال. فلا سكين مع الطعام ولا "شوكة"، بل

قميص المحكوم عليه فحسب، وهو عبارة عن كيس من التيل الخشن ليس له كمان سجنت بداخله ذراعاي!

إنهم كانوا مسئولين عن بقائي حيا، وكنت قد استأنفت الحكم، وهذا الاستئناف قد يستغرق من ستة أسابيع إلى سبعة أسابيع غالية الثمن، وكان من المهم أن يحتفظوا بي سليما معافى لساحة الاعدام!

وعوملت في الأيام الأولى بلطف كان يبدو لي رهيبا مفزعا، فظرف السجان ورقته رائحة من روائح المشنقة، ثم ما لبثوا أن تغلبت عليهم العادة لحسن الحظ فعاملوني في غلظة كما يعاملون غيري من المساجين، ولم يعودوا يميزونني على غير المألوف منهم بأدبهم الذي كان يجعلني أتصور الجلاد واقفا أمامي على الدوام. ولم يكن ذلك هو التحسن الوحيد الذي طرأ على موقفي، بل إن شبابي، ودعتي، وعناية قسيس السجن بأمري، وبوجه خاص بعض الكلمات اللاتينية التي كنت أوجهها إلى البواب فلا يفهم من أمرها شيئا، كل ذلك قد فتح لي باب النزهة مرة في كل أسبوع مع المسجونين الآخرين، وذهب بالقميص الخشن الغليظ الذي كان يشل حركتي. كما أعطيت كذلك مدادا وورقا وقلما ومصباحا بعد تردد ليس بالقصير.

وكانوا يطلقونني في كل يوم أحد بعد القداس في فناء السجن ساعة الفسحة حيث أتبادل الحديث مع المسجونين، وكان هذا بالنسبة إلي شيئا ضروريا للغاية. حقا إن هؤلاء البائسين أناس طيبون، وهم يقصون علي

وقائعهم وحيلهم، وهي أمور ترسل في الجسم رعدة قاسية ولكني كنت أعلم أنهم يفاخرون.

وكان هؤلاء المسجونون يعلمونني أن أتحدث بلغة السجون كما يقولون، وهي لغة مكتملة النمو مشتقة من اللغة الجارية كنوع من الورم الخبيث، أو كالسنط في الجسد، لبعض ألفاظها وقع عنيف وجمال مخيف، وذلك مثل قولهم: "إنه يمشي على العنب الأحمر"، ويعنون به أن الدم في طريقه. وقولهم: "يتزوج الأرملة"، ويعنون به أنه يشنق كما لو كان حبل المشنقة أرملة فقدت كل أزواجها السابقين المشنوقين!

إن رأس اللص له في السجن اسمان: "السربون" عندما يفكر ويعقل وينصح بالجريمة، و"المقطوع" عندما يقطعه الجلاد! وفي بعض الأحيان، تكون ألفاظ السجن هذه شبيهة بروح المسرحية الخفيفة المرحة (الفودفيل)، كقولهم: "شال من خيزران" (عربة "الزبال").. و"الكاذبة" (اللسان)!

وفوق هذا، ففي كل لحظة وفي كل مكان تسمع كلمات غريبة وعجيبة تتسم بالقبح والقذارة، ولا أدري من أين تخرج، مثل: الدرع (الجلاد)، و"الخازوق" (الموت)، و"الصندرة" (ساحة الاعدام)!.. ألفاظ تبدو لي كالعناكب والأبراص، حينما يسمعها المرء تترك في نفسه الأثر الذي يحدثه الشئ القذر المعبر، وكأنها كتلة من الخرق البالية التي تنفض أمام عينيه.

ومهما يكن من شئ، فإن هؤلاء الرجال يرثون لحالي، وهم وحدهم

الذين يفعلون ذلك، إذ أن السجانين والحراس – ولست أحقد عليهم – يتحدثون ويضحكون، ويتكلمون عني في وجودي وكأنني شئ يمت إلى عالم الجماد!

الفصل الثاني

أيام لن تعود

مذكراتي

وقلت في نفسي: لماذا لا أكتب ما دامت لدي أدوات الكتابة؟ ولكن، ماذا أكتب؟ إنني سجين بين أربعة جدران ضخمة من الحجر العاري البارد الحزين، حيث لا حرية لخطواتي ولا أفق يمتد أمام عيني، ولا تسلية لي طول الوقت إلا أن أتتبع بطريقة آلية ما يجري خارج زنزانتي من خلال كوة الباب المربعة الصغيرة البيضاء، وما كانت تعكسه أمامي مباشرة على الحائط المظلم، وكما كنت أقول منذ برهة، فإني كنت وحدي وجها لوجه مع فكرة الجريمة والعقاب، فكرة القتل والموت! فهل سيكون لدي ما أقوله وأنا الذي صرت انسانا لا داعي لوجوده في هذا العالم؟ وماذا عساي أن أجد في هذا الإنسان الذابل الخاوي؟

ولكن.. لم لا؟

إذا كان كل شئ من حولي يسير على وتيرة واحدة، ولا لون له على الاطلاق، أفلا تضطرم في أعماق نفسي عاصفة عاتية، وكفاح مستعر، ومأساة دامية؟ إن هذه الفكرة الثابتة التي تستحوذ على نفسي تتبدى أمامي في كل ساعة وفي كل لحظة في شكل جديد، وهي تزداد كآبة وتلوثا بالدماء ساعة بعد ساعة كلما اقترب المصير المحتوم! فلماذا لا أحاول أن

أقول لنفسي كل ما أحس به، وأقص عليها ما أكابده من مشاعر عنيفة، بعضها يحاصرني فعلا وبعضها مجهول لا يزال ينتظرني في موقفي هذا الميئوس منه الذي أجد نفسي فيه الآن.

إن الموضوع غني ما في ذلك شك، ومهما بدا لي ما تبقى من عمري قصيرا فسوف يكون في الهواجس والرعب والعذاب الأليم، الذي يملؤه منذ هذه الساعة إلى أن تحين ساعتي الأخيرة، ما يكفي لاستهلاك هذا القلم ونفاد هذا المداد كله. ومن جهة أخرى، فإن الوسيلة الوحيدة التي أستطيع بها أن أخفف بعض الشئ من آلام هذه الهواجس هي أن ألاحظها ثم أصفها، فهذا خليق بأن يسري عني بعض التسرية.

وفوق هذا، فإن ما سأكتبه هكذا قد لا يكون عديم النفع. فهذه المذكرات التي تسجل آلامي ساعة فساعة، ودقيقة فدقيقة، وعذابا إثر عذاب – لو أني وجدت في نفسي القدرة على تدوينها حتى اللحظة التي سوف يستحيل علي جثمانيا أن أتابع كتابتها – إذ أن قصة مشاعري هذه ستبقى حتما ناقصة بلا نهاية وإن كانت كاملة من حيث طاقتي – هذه المذكرات ألن تحمل في طياتها عظة كبيرة وعميقة؟ ألن يكون في هذا السجل المدون عن الفكر وهو يحتضر، وعن الآلام التي تتزايد باستمرار.. هذا النوع من التشريح العقلي لإنسان محكوم عليه بالموت.. ألن يكون فيه أكثر من درس لأولئك الذين يصدرون هذا الحكم؟

نعم.. فقد تجعلهم قراءة هذه المذكرات أقل تسرعا، وتحملهم على

شئ من التروي في المستقبل عندما يكون الأمر متعلقا بإسقاط رأس يفكر، رأس إنسان، فيما يسمونه ميزان العدالة! قد لا يكون هؤلاء التعساء فكروا قط في هذا التتابع البطئ لألوان العذاب التي تنطوي عليه هذه الصيغة الموجزة التي ينطق بها في استخفاف: "الحكم بالاعدام" ترى هل وقفوا قط مرة واحدة، واحدة فحسب، عند هذه الفكرة الأليمة ليروا أن في هذا الإنسان الذي يقطعون رقبته ذكاء كان قد اعتمد على الحياة، وإن فيه روحا لم تكن قد تهيأت بعد للموت؟

كلا! إنهم لا يرون في هذا كله إلا سكينا مثلثة الشكل تهوي رأسيا على رقبة الشخص المحكوم عليه بالموت، وهم يحسبون دون شك أنه لا شئ هناك بالنسبة إليه، لا من قبل ذلك ولا من بعده!

إن هذه المذكرات سوف تظهر لهم أنهم مخطئون، فقد يتاح لها أن تنشر في يوم من الأيام، فتفتح أعينهم لحظات على آلام النفس التي لا يشك فيها أحد منهم. إنهم يفخرون بقدرتهم على القتل دون أن يتألم الجسم تقريبا بسبب سرعة المقصلة في انجاز مهمتها الدامية، غير أن هذا ليس كل ما في الأمر، إذ ما قيمة الألم البدني إذا قيس بآلام النفس؟

إننا لنشمئز من هذه القوانين الموضوعة على هذه الصورة التي تتحرك أنفسنا شفقة بها، وسوف يأتي يوم تكون فيه هذه المذكرات، وهي الأسرار الأخيرة لإنسان بائس، قد أسهمت في هذا المضمار.. اللهم إلا إذا عبثت الريح بعد موتي بهذه الأوراق الملطخة بالوحل في فناء السجن، أو لصقها

سجان على شكل نجوم في نافذة مكسورة الزجاج في حجرته فتتعفن هناك تحت قطرات المطر.

وسواء أكان ما أكتبه هنا يمكن أن يكون يوما ما نافعا لغيري، أم أنه أوقف القاضي وهو يهم بالنطق بالحكم، أم أنقذ البائسين من أبرياء ومذنبين، أنقذهم من الاحتضار الذي حكم به علي.. فلماذا كل ذلك؟.. وما فائدته؟.. وما أهميته؟.. ماذا يهمني أن تقطع رءوس أخرى بعد أن يكون رأسي قد قطع؟.. هل استطعت حقا أن أفكر في هذه الفكرة الجنونية، في أن أقذف بالمقصلة على الأرض وأهدمها بعد أن أكون قد صعدت عليها؟ هل لي أن أسألكم قليلا: ماذا سيعود علي من تحطيم المقصلة بعد أن أذهب ضحية لها؟

آه! إن الشمس، والربيع، والحقول المملوءة بالأزهار، والطيور التي تستيقظ في الصباح، والغيوم، والأشجار، والطبيعة، والحرية، والحياة.. كل ذلك لم يعد لي منه شئ!

رباه!.. إنه أنا الذي يجب انقاذه! هل صحيح أن هذا غير ممكن؟ وأنه يجب أن أموت غدا، بل وربما اليوم؟.. هل صحيح أن الأمر هكذا؟.. يا الهي! إن هذه الفكرة الرهيبة لتدفعني إلى التفكير في تحطيم رأسي على جدار زنزانتي والآن، فلنعد ما تبقى لي:

مهلة مدتها ثلاثة أيام عقب النطق بالحكم لتقديم طلب الاستئناف إلى محكمة النقض. وثمانية أيام من النسيان في نيابة الاستئناف ترسل بعدها

المستندات – كما يقولون – إلى مكتب الوزير. وخمسة عشر يوما من الانتظار لدى الوزير الذي لا يحس بوجود هذه الأوراق ولا يعلم من أمرها شيئا، ومع ذلك فالمفروض أنه يحيلها بعد فحصها إلى محكمة النقض، حيث يتم ترتيبها وترقيمها وتسجيلها، لأن المقصلة لديها عمل كثير، ويجب ألا يمر كل انسان إالا في دوره.. ثم خمسة عشر يوما للتأكد من أنه لم يحدث لك امتياز ما خارج حدود القوانين واللوائح.

وأخيرا، تنعقد المحكمة عادة في يوم خميس، فترفض عشرين طلب استئناف دفعة واحدة، ثم تعيدها إلى الوزير الذي يرسلها إلى النائب العام، فيحيلها هذا إلى الجلاد. ويستغرق هذا كله ثلاثة أيام.

وفي صباح اليوم الرابع، يقول وكيل النائب العام لنفسه وهو يلبس ربطة عنقه: "ومع ذلك فيجب أن تنتهي هذه المسألة!" وعندئذ، فإن كان نائب كاتب المحكمة ليس مرتبطا بموعد للغداء مع بعض الاصدقاء يمنعه من ذلك، فإن الأمر بالاعدام تحدد له دائما دقيقة للتنفيذ، ثم يحرر ويبيض ويرسل إلى الجهة المختصة.. فيسمع منذ فجر اليوم التالي صوت اقامة أخشاب المقصلة في ساحة الاعدام، ويصيح المنادون العموميون عند تقاطع الشوارع وفي الأزقة في صوت مرتفع مبحوح.

كل ذلك يتم في ستة أسابيع. إن الفتاة الصغيرة كانت على حق! ولكن ها هي ذي خمسة أسابيع على الأقل، وربما ستة فلست أجرؤ على أن أعدها، قد انقضت علي في هذا السجن، سجن "بيستر" الحقير،

ويبدو لي أنه منذ ثلاثة أيام مضت كان اليوم يوم خميس.

* * *

لقد فرغت الآن من كتابة وصيتي!

ولكن.. ما فائدة ذلك؟ لقد حكم علي بدفع تعويض لن يكون كل ما أمتلكه كافيا لسداده. حقا إن المقصلة باهظة الثمن!

إنني أترك ورائي أما، وزوجة، وطفلة!.. طفلة صغيرة في الثالثة من عمرها حلوة وردية اللون ضعيفة البنيان، عيناها واسعتان سوداوان وشعرها طويل كستنائي اللون، وكانت سن ابنتي سنتين وشهرا واحدا عندما رأيتها لآخر مرة وهكذا، فسوف يكون هناك بعد موتي ثلاث نساء: واحدة منهن بغير ابن، والثانية بغير زوج، والثالثة بلا أب.. ثلاث يتيمات من أنواع مختلفة.. ثلاث أرامل باسم القانون!

إني أوافق على أن أعاقب عقابا عادلا ولكن.. هؤلاء البريئات ماذا جنين؟ وما ذنبهن؟ إن هذا لا يهم، فهم يلوثون شرف هؤلاء النسوة الثلاث ويدمرون حياتهن.. إنها العدالة!

وليس ما في الأمر أن أمي العجوز المسكين تقلقني، فسنها أربع وستون سنة وسوف تموت من أثر الصدمة، ولو أنها عاشت من بعدي لبضعة أيام فيا ليتها تجد في مدفأتها لآخر لحظة بعض الرماد الدافئ، فهي لن تشكو ولن تقول شيئا، وأمر زوجتي كذلك لا يبعث في نفسي القلق،

فهي معتلة الصحة ضعيفة النفس، وسوف تموت هي الأخرى.. إلا إذا أصابها مس من الجنون. إنهم يقولون إن الجنون يطيل العمر، ولكن عقلها لن يتألم عندئذ على الأقل، ومن ثم فإنها ستنام وتكون كأنها في عداد الأموات، أما ابنتي وفلذة كبدي، طفلتي وصغيرتي "ماري" المسكينة التي تضحك وتلعب وتغني في هذه الساعة ولا تفكر في شئ، فإنها هي التي تثير في نفسي الألم!

في الزنزانة

هذه هي زنزانتي:

إن مساحتها ثماني أقدام مربعة، ولها أربعة جدران سميكة من الحجر، ترتكز بزاوية قائمة على أرضية من البلاط تعلو بمقدار درجة واحدة على مستوى الدهليز الخارجي. وهناك على يمين الداخل، عند الباب، نوع من التجويف يقلد في سخرية صوان ملابس النساء الذي يوجد عادة داخل الجدران. إنهم يلقون فيه بحزمة من القش من المفروض أن يستريح السجين عليها وأن ينام وهو يرتدي سروالا من التيل، وسترة من القماش الرخيص لا يتغيران صيفا أو شتاء.

وفوق رأسي كسماء، يرى المرء "قبوة" سوداء – هكذا يسمونها – تتدلى منها خيوط العنكبوت كأنها خرق بالية. وفيما عدا هذا، فلا نوافذ هناك، حتى ولا كوة صغيرة، فلن تجد اللهم إلا بابا عتيدا يطغى فيه الحديد على الخشب.

كلا، كلا.. إنني مخطئ، ففي وسط هذا الباب إلى أعلى، هناك فتحة مساحتها تسع بوصات مربعة، تتخللها طولا وعرضا شبكة من حديد على شكل صليب، يستطيع السجان أن يغلقها أثناء الليل.

وفي خارج الزنزانة، دهليز طويل نسبيا يضاء ويغير هواؤه عن طريق نوافذ عالية ضيقة في أعلى الجدار، ومقسم إلى أقسام بفواصل مبنية، ويتصل بعضها ببعض بسلسلة من الأبواب المتينة غير المرتفعة. ويستعمل كل قسم من أقسام هذا الدهليز، على نحو ما، كمدخل لزنزانة شبيهة بزنزانتي، وفي هذه الزنزانات يضعون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة الذين يحكم عليهم مدير السجن بعقوبات تأديبية. أما الزنزانات الثلاث الأولى فمخصصة للمحكوم عليهم بالاعدام لأنها قريبة من مركز المراقبة، ومن ثم فهي أكثر ملاءمة للسجان.

هذه الزنزانات هي كل ما تبقى من قصر "بيستر" القديم كما بناه في القرن الخامس عشر الكاردينال "وينشستر" وهو نفس الكاردينال الذي قضى بإحراق "جان دارك".. إنني سمعت هذا من فضوليين كانوا قد حضروا منذ أيام ليروني في زنزانتي، وكانوا ينظرون إلي من بعيد كما ينظر الناس إلى الوحوش الضارية في حدائق الحيوان. وقد حصل السجان يومئذ على خمسة فرنكات.

لقد نسيت أن أقول أن هناك جنديا مكلفا بالحراسة على باب زنزانتي ليلا ونهارا، وإن عيني لا تستطيعان أن ترتفعا إلى الفتحة المربعة بباب الزنزانة

دون أن تلتقيا بعينيه المفتوحتين الشاخصتين إلي على الدوام.

وفيما عدا هذا، فهم يفترضون أن الهواء وضوء النهار ينفذان إلى هذا الصندوق المصنوع من الحجر.

وبما أن ضوء النهار لم يظهر بعد، فماذا أفعل بالليل؟

لقد خطرت ببالي فكرة، فنهضت واقفا وأدنيت مصباحي من الجدران الأربعة، فوجدتها مغطاة بالكتابة والرسوم والأشكال الغريبة، وبأسماء يختلط بعضها ببعض ويمحو بعضها بعضا. ويبدو أن كل محكوم عليه قد أراد أن يترك وراءه أثرا، هنا على الأقل. إنها كتابات بالقلم، وبالطباشير، وبالفحم، وبها حروف سوداء وبيضاء ورمادية اللون محفورة في الأغلب حفرا عميقا في الحجر. ورأيت هنا وهناك أحرفا بدأت معالمها تنطمس، ويبدو أنها قد كتبت بالدم.

ولو أن نفسي كانت أكثر حرية مما هي فيه لاهتممت حقا بأمر هذا الكتاب الغريب المسطر أمام عيني صفحة صفحة على كل حجر من أحجار هذه الزنزانة، ولكنت جعلت من هذه الشرائح من الأفكار المبعثرة على الأحجار كتابا كاملا أعيد تأليفه، وأن أجد مرة ثانية كل رجل وراء كل اسم، وأن أعيد المعنى والحياة إلى هذ الكلمات المحفورة المحطمة، إلى هذه العبارات المبعثرة المفككة، إلى هذ الألفاظ المبتورة التي بدت لي كأجساد بلا رءوس كالأشخاص الذين كتبوها.

ورأيت عند مستوى ارتفاع فراشي المصنوع من القش قلبين ملتهبين

يخترقهما سهم ومكتوب فوقهما: "الحب مدى الحياة!" يا للمسكين! ماتت أمانيه في ريعان الشباب!

وإلى جوار هذا قبعة مثلثة الزوايا، من تحتها وجه مرسوم بطريقة رديئة ومعه هذه الكلمات: " يحيا الأمبراطور.. "عام ١٨٢٤".

ورأيت قلوبا أخرى ملتهبة ومعها هذه العبارة الخاصة بحياة السجون: "إنني أحب وأعبد " ماتيو دنفان – جاك".

وعلى الجدار المقابل لسريري، وقعت عيناي على هذا الاسم: "بابا فوان"، وكان حرف الباء الاول كبيرا ومزركشا بنقوش عربية ومرسوما بعناية، ومن تحت هذا مقاطع من أغنية بدائية. ثم على "قبعة الحرية" المحفورة في الحجر بشكل عميق بعض الشئ، وقد كتب من فوقها هذا الكلام: "إلى الجمهورية – بوريس".. إنه كان أحد ضباط الصف الأربعة بمدينة "لاروشيل"! يا له من شاب مسكين! ويا لكآبة ضروراتهم السياسية المزعومة! فبسبب فكرة أو حلم أو مجرد خيال، نرى هذه الحقيقة البشعة: المقصلة!.. وأنا الذي كنت أشكو.. أنا التعس الذي ارتكبت جريمة بمعنى الكلمة وأرقت الدماء!

إنني لن أذهب في بحثي إلى أبعد من هذا، فقد رأيت من فوري صورة رهيبة مروعة مرسومة باللون الأبيض في ركن الجدار: إنها صورة هذه المقصلة التي ربما كانت تقام لي في هذه اللحظة! وكاد المصباح يسقط من يدي!

* * *

واندفعت عائدا لأجلس على القش ورأسي بين ركبتي، ثم انقشع فزعي الصبياني وأخذتني من جديد الرغبة في الاستطلاع، ومتابعة قراءة ما هو مكتوب على جدار الزنزانة.

انتزعت من جانب اسم "بابافوان" نسيج عنكبوت ضخم مثقلا تماما بالغبار، ومعلقا في زاوية الجدار، فرأيت تحته أربعة أسماء أو خمسة من الممكن أن تقرا بسهولة من بين أسماء أخرى لم يبق منها سوى بقع على الجدار. أما الأسماء الواضحة فهي: "دوتان" عام ١٨١٥ – "بولان" عام ١٨١٨ – "جان مارتان" ١٨٢١ – "كاستانج" عام ١٨٢٣.

وما كدت اقرأ هذه الأسماء حتى انتابتني ذكريات مظلمة: أما "فدوتان" هو الذي قطع أخاه إربا إربا، وذهب ليلا إلى باريس ليلقى برأسه في نافورة وبجذعه في المجاري! و"بولان" هو الذي قتل زوجته، و"جان مارتان" هو الذي أطلق رصاص مسدسه على والده الشيخ وهو يفتح نافذة. أما "كاستانج" فهو ذلك الطبيب الذي قضى على صديقه وهو يعالجه في مرضه الأخير، الذي كان الطبيب نفسه سببا فيه، وذلك بأن كان يعطيه السم على أنه دواء. وإلى جانب هؤلاء "بابافوان" المجنون الرهيب الذي كان يقتل الأطفال بطعنة من سكين في الرأس!!

قلت في نفسي: ها هم أولاء من أقاموا من قبلي ضيوفا في هذه الزنزانة! وأحسست برجفة من الحمى تسري في كليتي! هنا، على نفس هذه "البلاطة" التي أجلس عليها، جالت في أذهان رجال الجريمة والدم هؤلاء،

أفكارهم الأخيرة.. لقد دارت خطواتهم الأخيرة حول هذا الجدار، وفي هذا المربع الضيق، كخطوات حيوان كاسر، لقد تتابع بعضهم في أثر بعض على فترات متقاربة في هذه الزنزانة حتى ليبدو لي أنها لم تخل أبدا من النزلاء! لقد تركوا هذا المكان دافئا..تركوه لي أنا، وسوف أذهب بدوري لألحق بهم في مقبرة "كلامار" حيث ينمو العشب بغزارة أيما غزارة!

لست أتنبأ بالغيب، ولا أعتقد في الخرافات، ومن المحتمل أن هذه الأفكار كانت تثير في نفسي مزيدا من الحمى، ولكن بدا لي فجأة وأنا أحلم على هذه الصورة، أن تلك الأسماء المشئومة كانت مكتوبة بالنار على الجدار الأسود، ودوى في أذني رنين قوي أخذ يزداد عنفا وسرعة، وامتلأت عيناي بوهج أحمر! ثم بدا لي أن الزنزانة كانت مملوءة بالرجال، برجال أشكالهم غريبة، كانوا يحملون رءوسهم بأيديهم اليسرى وهم يمسكون بها من الفم، لأنها كانت رءوسا لا شعر فيها.. وكانوا جميعا يلوحون إلي بقبضات أيديهم مهددين ما عدا قاتل أبيه!

وأطبقت عيني وقد تملكني الهلع، فرأيت عندئذ كل شئ في وضوح أكثر، وسواء أكان ما رأيته حلما أم رؤيا أم حقيقة، فقد كنت خليقا بأن أجن.. لولا أني أحسست بشعور مفاجئ أيقظني من هذا الكابوس في الوقت المناسب، وكدت أقع على ظهري عندما شعرت ببطن بارد، وبأرجل صغيرة مكسوة بالزغب تزحف فوق قدمي العاريتين. كان هذا هو العنكبوت الذي كان في طريقه إلى الهرب بعد أن أزعجته.

ولقد أزال هذا العنكبوت الرؤيا من أمام ناظري. ويا لها من أشباح مرعبة! كلا، إنها كانت دخانا ينبعث من مخي الخاوي المحموم! كانت كابوسا على طريقة "ماكبث" فالموتى ميتون، وخاصة هؤلاء. لقد أغلقت عليهم القبور جيدا بالأقفال، وليس القبر سجنا يهرب منه الإنسان. فكيف حدث إذن أني خفت على هذا النحو؟

إن باب القبر لا يفتح من الداخل قط.

مشهد رهيب

رأيت في هذه الأيام الماضية شيئا بشعا!

كنا في مطلع الفجر، وكان السجن يضج بالأصوات، وكان يسمع صوت اغلاق الأبواب الثقيلة وفتحها، وصرير المزاليج والاقفال الحديدية، وصليل رزم المفاتيح التي يحتك بعضها ببعض في أحزمة السجانين، واهتزاز درجات السلم من أعلى إلى أسفل تحت وقع خطوات مندفعة، وأصوات ينادي بعضها بعضا، ويرد بعضها على بعض من طرفي الدهاليز الطويلة! وكان جيزاني في الزنزانة، وهم المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة، أكثر مرحا من المألوف. وكان يبدو على سجن "بيستر" بأسره أنه يضحك ويغني، وأنه يلهو ويرقص.

وبقيت وحدي صامتا وسط كل هذه الضوضاء، ساكنا لا أبدي حراكا وسط هذه الحركة الدائبة. كنت أصغي فحسب، أصغي في يقظة وانتباه وقد تملكتني الدهشة.

ومر أحد السجانين فخاطرت بندائه، وسألته عما إذا كان هناك عيد في السجن، فأجابني الرجل قائلا: "إنه عيد إذا شئت! فاليوم موعد تقييد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة بالحديد، أولئك الذين يجب أن يرحلو غدا إلى سجن" طولون "أتريد أن تشاهد ذلك؟ إنه سوف يسليك".

وكان هذا المنظر في الواقع – مهما بلغ من بشاعته – فرصة طيبة لإنسان سجين بمفرده في زنزانة، فقبلت هذه التسلية، واتخذ السجان الاحتياطات المعتادة كي يطمئن من ناحيتي، ثم اصطحبني إلى زنزانة صغيرة خالية ليس بها أثاث على الاطلاق، ولها نافذة مسورة بقضبان من حديد، ولكنها نافذة بمعنى الكلمة، على قدر من الارتفاع يسمح للمرء بأن يتكئ على حافتها، وأن يرى السماء من خلالها بالفعل.

وقال لي السجان: "حسنا.. من هنا سوف ترى وتسمع، وسوف تكون وحدك في مقصورتك هذه وكأنك ملك!".

ثم خرج الرجل بعد أن أغلق على باب الزنزانة بالمفاتيح والأقفال والمزاليج.

وكانت تلك النافذة تطل على فناء مربع الشكل، فسيح إلى حد معقول، يحيط به من الجهات الأربع بناء كبير من الحجر مؤلف من ستة طوابق كأنه جدار ضخم. وليس ثمة ما هو أكثر زراية وعريا وأشد ايذاء للعين من هذه الواجهة الرباعية ذات النوافذ العديدة المسورة بالحديد، التي التصقت بها – من أسفل البناء إلى أعلاه – مجموعة كبيرة من الوجوه

الشاحبة الضامرة، قد تكدس بعضها فوق بعض كأنها أحجار في جدار، يحيط بها جميعا – إن صح هذا التعبير – إطار من قضبان النوافذ الحديدية. كان هؤلاء هم السجناء، قد أخذوا يشاهدون هذا الحفل، في انتظار أدوارهم حين تحين ليصبحوا هم الممثلين. أن المرء ليخيل إليه أنهم أرواح معذبة من وراء نوافذ من حديد تطل على جهنم.

كانوا ينظرون جميعا في صمت إلى الغناء الذي كان لا يزال خاليا إلى تلك اللحظة. إنهم كانوا ينتظرون. وهنا وهناك، كانت بعض الأعين الحية الثاقبة تلمع كأنها نقط من النار بين تلك الوجوه الحزينة المنطفئة.

إن "مربع السجون" الذي يحيط بذلك الفناء ليس مقفلا من جميع نواحيه، فأحد أضلاعه الأربعة (الضلع الذي يطل على جهة الشرق) مقطوع عند وسطه تقريبا ولا يتصل بالضلع الذي يجاوره إلا بسور من حديد، يطل على فناء ثان أصغر مساحة من الفناء الأول، ومحاط مثله بالجدران والأبراج الصغيرة السوداء.

ومن حول الفناء الرئيسي، توجد مقاعد من الحجر ظهورها إلى الجدار الضخم، ويقوم في وسطه عامود من الحديد مثني من أعلى ليغلق به المصباح.

وما كادت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة ظهرا، حتى فتح على حين فجأة باب كبير مرتفع يكمن وراء تجويف في البناء، وظهرت عربة "كارو" يحرسها نفر من الجنود بدت عليهم القذارة والوحل، يرتدون زيا

أزرق، وعلى أكتافهم شارات حمراء، وسيور صفراء، من التي تعلق فيها البنادق. ودخلت هذه العربة الفناء في تثاقل محدثة صوتا حديديا. كانت تلك هي عربة السجانين قد جاءوا ومعهم أغلال من حديد.

وفي تلك اللحظة عينها، وكما لو كان الصوت الصادر من العربة قد أيقظ كل أصوات السجن، ضج المتفرجون من النوافذ بصيحات المرح والأغاني، وبالتهديد والسب والشتائم المختلطة بقهقهة عالية، وضحكات سماعها يؤلم الآذان، وهم الذين كانوا إلى تلك اللحظة صامتين لا يتحركون، كانت وجوههم تبدو كأنها وجوه الشياطين، وقد بدت مكفهرة مكثرة عن أنيابها، وبرزت قبضات أيديهم من خلال قضبان النوافذ، وارتفعت كل الأصوات، ولمعت كل الأعين، فروعتني رؤية كل ذلك الشرر وهو يتطاير من خلال هذا الرماد.

ومع ذلك، فقد شرع عمال السجن، الذين كنت أميز من بينهم عددا من الفضوليين، كانوا قد قدموا من باريس، نظرا لما كان باديا عليهم من الرعب ونظافة الهندام، وشرع عمال السجن هؤلاء في تأدية عملهم في هدوء، فصعد أحدهم فوق العربة وألقى إلى رفاقه بالأغلال الحديدية، وأطواق السفر، ورزم السراويل المصنوعة من التيل الرخيص. ثم قسم العمال العمل فيما بينهم، فذهب فريق منهم إلى ركن من أركان الفناء ليبسطوا فيه السلاسل الطويلة التي كانوا يسمونها في لغتهم "الدوبارة"، أما الآخرون فقد بسطوا الأقمشة والقمصان والسراويل على "البلاط"، بينما

كان أكثرهم فراسة يفحصون الأطواق الحديدية المخصصة لأقدام السجناء، تحت مراقبة قائدهم وهو شيخ بدين، ثم يمتحنون صلابتها يحكها في البلاط حتى يتطاير منها الشرر.

وكان هذا كله يجري بينما كان السجناء يصفقون في سخرية واستهزاء، ولم يكن يطغى على أصواتهم إلا ضحكات صاخبة صادرة من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، الذين كان ذلك يعد من أجلهم، وهم يقفون على مرأى منا عند تقاطع السجن العتيق الذي يطل على الفناء الصغير.

وما إن تمت هذه الاستعدادات حتى جاء رجل في ثياب موشاة بالفضة كانوا يدعونه "السيد المفتش"، وأعطى أمرا إلى مأمور السجن. وما هي إلا لحظة حتى لفظ بابان منخفضان وثلاثة عددا ضخما من الرجال دفعة واحدة، وامتلأ الفناء بكتل كالسحاب من السجناء البشعين المهلهلين وهم يصيحون ويزأرون. كان هؤلاء هم المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة!

وتضاعف الفرح في النوافذ لدى دخول هؤلاء، وحيا السجناء بعضهم – وهم الأسماء الكبيرة في الليمان – بالتصفيق والتهليل، فكان هؤلاء يتقبلون ذلك منهم في نوع من التواضع الممزوج بالفخر، وكان أكثرهم يلبسون فوق رءوسهم قبعات غريبة الشكل كانوا قد صنعوها بأيديهم من قش الزنزانة، كي تلفت الأنظار إلى رءوسهم في المدن التي

سوف يمرون بها. وكان التصفيق لهؤلاء بالذات أكثر شدة وحماسا، بل إن أحدهم بصفة خاصة – وهو شاب في السابعة عشرة كان وجهه شبيها بوجه فتاة – قد أثار مظاهر الحماسة والانفعال وهو خارج من زنزانته حيث احتجز منذ ثمانية أيام، وكان قد صنع بنفسه من قش زنزانته رداء كان يغطيه من رأسه إلى قدميه، فدلف إلى الفناء وهو يلف ويدور حول نفسه في خفة لا تحاكيها إلا خفة ثعبان، فثارت بسببه عاصفة مجنونة من التصفيق، ومن صيحات السرور. وكان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يردون على ذلك من أبراجهم، فكان هذا التجاوب في المشاعر وتبادل المرح بين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الراحلين لتنفيذ العقوبة وبين زملائهم الذين ينتظرون دورهم شيئا مرعبا حقا. ومهما كان المجتمع هنا يمثله السجانون والفصوليون الذين استولى عليهم الذعر، فإن الجريمة كانت تتحداه في تلك اللحظة وجها لوجه، وكانت تجعل من هذه العقوبة المفزعة عيدا عائليا.

وكلما وصل سجناء آخرون، كانوا يدفعونهم بين صفين كثيفين من الحراس إلى الفناء الصغير المحوط بالأسوار الحديدية حيث كان ينتظرهم الأطباء. وهناك، بذل كل واحد منهم جهدا أخيرا ليتجنب السفر متعللا بعذر من الأعذار الصحية: فهو إما مريض بعينيه، وإما مقطوع اليد، وإما أنه يعرج بساقه، لكن الأطباء كانوا يجدونهم في الأغلب الأعم صالحين لليمان، فكان كل منهم يرضخ عندئذ في غير مبالاة، متناسيا في دقائق

قليلة عجزه المزعوم الذي كان مصابا به طول حياته.

ثم فتح باب الفناء الصغير مرة أخرى وأخذ أحد الحراس ينادي بأسماء السجناء مرتبة حسب الحروف الأبجدية، فخرج المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة عندئذ واحدا واحدا، وذهب كل منهم لينتظم واقفا في الصف في ركن الفناء الكبير إلى جوار زميل له، جمعته به صدفة الحرف الذي يبدأ اسمه به. وهكذا كان كل واحد منهم يرى نفسه أمام نفسه، وكان كل واحد منهم يحمل قيده بنفسه جنبا إلى جنب مع شخص مجهول، وإذا شاءت المصادفة أن يجد أحدهم صديقا له فيهم، فإن القيد الحديدي كان يحول بينهما ويفصله عنه فصلا لا سبيل إلى الفكاك منه، فكان ذلك أبلغ الشقاء وأمره!

وبعد أن خرج نحو ثلاثين سجينا أقفل الباب كما كان، ثم صفهم أحد الجنود صفا بعصا في يده، وألقى أمام كل واحد منهم بقميص وسترة وسروال من قماش رخيص، ثم أشار بيده إشارة خاصة فشرعوا جميعا في خلع ملابسهم، غير أن حادثا غير منتظر وقع عندئذ، وكأنه كان قد تعمد اختيار تلك اللحظة بالذات ليحيل هذا الاذلال إلى عذاب.

كان الطقس إلى تلك اللحظة جميلا نوعا ما، ولئن كان نسيم شهر أكتوبر يشيع البرودة في الجو، فإنه كان يشق من أن لآخر في غيوم السماء الرمادية اللون ثغرة كان يسقط منها شعاع من الشمس. ولكن ما كاد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ينزعون من على أجسادهم أسمال السجن

البالية ويتقدمون عراة ليفحصهم الحراس المتشككون على مرأى من أعين الفضوليين الغرباء الذين كانوا يدورون من حولهم ليفحصوا أكتافهم، حتى أظلمت السماء فجأة وهطل وابل من أمطار الخريف التي تشبه السيل، فغمر الفناء المربع بالماء البارد وأغرق رءوس السجناء الحاسرة وأوصالهم العارية وملابسهم التعسة الملقاة على الأرض. وفي طرفة عين، كان مدخل الفناء قد خلا تماما من كل شخص لم يكن سجانا أو سجينا، وهرع فضوليو باريس ليحتموا تحت مداخل الأبواب.

ومع ذلك، فقد استمر المطر ينهمر مدارارا، لم نكن نرى في الفناء سوى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وقد وقفوا عراة يتصبب الماء من فوق جلودهم على أرض الفناء الغارقة في الماء.. إن صمتا حزينا قد أعقب تحديهم الصاخب فوقفوا يرتجفون، وأخذت أسنانهم تصطك وسيقانهم الناحلة وركباتهم ذات العقد ترتعد فتصطدم الواحدة بالأخرى. وكان منظرهم يستوجب الشفقة حقا، وهم يسترون أجزاء أجسادهم العارية الزرقاء بهذه القمصان المبتلة وتلك الستر والسراويل التي يقطر منها الماء. لقد كان العري خيرا لهم.

إن واحدا منهم، واحدا فقط، وهو شيخ مسن، كان قد احتفظ بشئ من المرح، فصاح قائلا وهو يجفف جسمه بقميصه المبتل: "إن هذا لم يكن ضمن البرنامج!" ثم أغرق في الضحك، وهو يلوح بقبضة يده نحو السماء وبعد أن لبس السجناء ثياب السفر، اقتادهم حراسهم في مجموعات تضم

عشرين أو ثلاثين شخصا إلى ركن مظلل من الفناء حيث كانت القيود الممدودة على الأرض في انتظارهم. وكانت تلك القيود عبارة عن سلاسل طويلة غليظة تقطعها افقيا وعلى بعد قدمين بانتظام سلاسل أخرى قصيرة قد ربط في طرفيها طوق من حديد مربع الشكل يفتح عن طريق "مفصلة" في أحد جوانبه، ويقفل من الجانب المقابل "ببرشمته" بالحديد ويظل هذا الطوق الحديدي حول رقبة السجين طول مدة الرحلة وعندما نشرت كل هذه السلاسل على الأرض بدت لي كأنها هيكل عظمى لسمكة ضخمة.

وأجلس السجناء في الوحل على الأرض الغارقة في الماء وبعد أن قيست الأطواق على أعناقهم، جاء حدادان من السجانين مزودان بسندانين متنقلين فبرشموا لهم تلك الأطواق "على البارد" بطرقها طرقا شديدا بمطرقة من حديد. فكانت هذه لحظة رهيبة أصفر لها وجه أكثر السجناء شجاعة! لقد كانت كل ضربة من المطرقة على السندان المسنود إلى كتف السجين من ناحية ظهره تجعل ذقن المسكين تقفز إلى الأمام، وكانت أدنى حركة يمكن أن يأتي بها السجين من الأمام إلى الخلف كفيلة بأن تطيح بجمجمته كأنها قشرة "عين جمل!".

وما إن تمت هذه العملية حتى وجم السجناء وأظلمت وجوههم، ولم يعد يسمع إلا صليل السلاسل وصوت مكتوم كان يتردد بين حين وآخر، صوت عصي السجانين على أجسام من يبدون تمنعا أو مقاومة.. لقد كان بعض هؤلاء السجناء يبكون، وكان الشيوخ منهم يرتعدون وهم يعضون

على نواجذهم، ووقفت أنا في نافذة الزنزانة أطل على الفناء وأنظر في رعب إلى كل تلك الصور المحزنة في إطارها الحديدي.

وهكذا، فإن زيارة السجانين تلت زيارة الطبيب، وأعقب زيارة السجانين تركيب الأطواق الحديدية حول رقاب السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة.. لقد كان مشهدا مؤلفا من ثلاثة فصول!

وظهر شعاع الشمس من جديد فبدأ كأنه قد أشعل كل هذه العقول، إذ نهض السجناء معا دفعة واحدة، كما لو كانوا قد تحركوا بفعل الحمى، وتشابكت أيدي سجناء السلاسل الخمس الطويلة وانتظموا فجأة في حلقة ضخمة حول عامود المصباح الذي يتوسط الفناء، وأخذوا يدورون من حوله على نحو يتعب البصر وهم ينشدون إحدى أغاني الليمان في لغة عامية دارجة، وفي نغمة تارة شاكية باكية، وأخرى صاخبة مرحة. وكنت أسمع بين حين وآخر صيحات جافة وضحكات ممزقة لاهثة تمتزج بكلمات هذه الأغنية الغريبة، ثم تلا ذلك تصفيق حاد مجنون، بينما كانت القيود الحديدية تصلصل ويصطك بعضها ببعض فتحدث نغما كان بمثابة الموسيقى لتلك الأغنية، وهي موسيقى كانت أشد خشونة من ضوضائهم! ولو بحث في مخيلتي عن صورة للعفاريت فلن أستطيع أن أتخيلها أحسن ولا أسوأ من هذه الصورة!

ثم أحضر إلى الفناء طست كبير، وقطع السجانون على السجناء رقصهم بضربات من عصيهم، ثم ساقوهم إلى هذا الطست حيث كان المرء

يرى شيئا طافيا كالعشب – لست أدري ما هو – في سائل ساخن كان يتصاعد منه البخار لست أدري ما هو كذلك، فأخذوا يأكلون.

وبعد أن فرغ السجناء من أكلهم ألقوا بما تبقى من طعامهم هذا ومن خبزهم الأسود على بلاط الفناء ثم عادوا إلى الرقص والغناء من جديد، ويبدو أنهم يتركون لهم شيئا من هذه الحرية يوم يكبلون في الأصفاد وكذلك في الليلة التي تليها.

ومكثت أرقب هذا المشهد الغريب في يقظة كبيرة، واستطلاع منهوم، وانفعال عميق، حتى أني نسيت نفسي تماما! إن شعورا جارفا من الشفقة كان يجتاحني فيمزق احشائي، وكانت ضحكاتهم تملأ عيني بالدموع.

وفجأة، وخلال هذا الحلم العميق الذي كنت مستغرقا فيه رأيت الحلقة الضخمة تكف عن الصياح والدوران، وساد صمت عميق ثم فجأة اتجهت أنظارهم إلى النافذة التي كنت أشغلها، وصاحوا جميعا، وهم يشيرون إلي بأصابعهم قائلين: "المحكوم عليه بالاعدام.. المحكوم عليه بالاعدام!".. وقد غمرهم في تلك اللحظة مرح مضاعف..

وتصلبت في مكاني متحجرا! فقد كنت أجهل من أين عرفوني وكيف تعرفوا علي؟

وصاحوا بي قائلين، وهم يطلقون ضحكات ساخرة بشعة: "عمت صباحا!.. طاب مساؤك!".. ونظر إلي واحد من بينهم، وهو شاب يافع

كان أصغر المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة سنا، وكان وجهه خشنا لامعا جامد الملامح، نظر إلي نظرة تفيض بالحسد، وهو يقول: "إنه لسعيد الحظ! فسوف يمحى من العالم! وداعا أيها الزميل!".

لست بمستطيع أن أعبر عما كان يدور في نفسي.. إنني كنت في الواقع زميلا لهم، فساحة الاعدام هي شقيقة لليمان "طولون"، بل إني كنت في درك أسفل منهم!.. إنهم كانوا يشرفونني..

واجتاحتني رجفة عاتية.. نعم، إني زميل لهم ومن الممكن أن أصير – أنا نفسي – بعد أيام مشهدا يملأ عليهم أبصارهم!

وكنت قد بقيت في النافذة بلا حراك وقد شلت أوصالي وتملكني الذهول. ولكنني حينما رأيت سجناء السلاسل الخمس الكبرى يتقدمون إلى الامام ثم يندفعون نحوي وهم يوجهون إلي كلمات ودية جهنمية، وحينما سمعت ضجيج قيودهم الفظيع يختلط بصيحاتهم المجلجلة، وبوقع خطواتهم تحت نافذتي عند أسفل الجدار، خيل إلي أن هذه الشرذمة من الشياطين كانت تتسلق البناء إلى زنزانتي التعسة، وأطلقت صيحة مروعة ثم اندفعت نحو الباب وألقيت نفسي عليه بكل قواي كل أحطمه، لكني لم أجد سبيلا إلى الفرار، فقد كان الباب مقفلا من الخارج بالمزلاج.. وعدت أحاول اقتحام الباب، وأنا أنادي وأصرخ في جنون، فبدا لي وقتئذ أني كنت أسمع أصوات السجناء المخيفة تقترب مني أكثر بأكثر، وظننت أني أرى رءوسهم المنكرة تبدو بسرعة على حافة نافذتي، فصحت صيحة فزع أخرى مدوية ثم سقطت مغشيا علي.

وعندما أفقت من من غشيتي كان الليل قد أقبل، ووجدت نفسي راقدا فوق "برش"، وكان هناك مصباح ترتجف ذبالته قرب السقف مكنني من أن أرى "أبراشا" أخرى مرصوصة إلى جوار "برشى" عن يمين، وعن شمال، فأدركت أنهم نقلوني إلى مستشفى السجن.

وظللت مستيقظا لحظات، ولكن بلا تفكير وبلا ذاكرة وقد أحسست بسعادة غامرة لأني نائم على سرير. وليس ثمة شك في أن سرير المستشفى هذا كان خليقا في أي ظرف آخر بأن يجعلني أفر منه شفقة واشمئزازا، غير أني كنت قد أصبحت شخصا آخر.. كانت ملاءة هذا السرير رمادية اللون خشنة الملمس، وكان الغطاء ممزقا، وكنت أشعر بقش الزنزانة من خلال تلك "المرتبة".. ولكن هذا لم يكن يهم!.. فقد كان في وسعي أن أبسط أطرافي كما يروق لي فوق هذه الملاءة الرخيصة وتحت هذا الغطاء مهما بلغ من الرقة، وكنت أحس رويدا رويدا بزوال هذا البرد المروع الذي كان ينفذ حتى نخاع العظام، والذي كنت قد الفته في الزنزانة، فاستسلمت مرة اخرى للنوم.

واستيقظت من نومي على صوت جلبة كبيرة، وكان الوقت فجرا. كان الصوت يأتيني من الخارج، وكان سريري بجوار النافذة، فنهضت وجلست في الفراش لاستجلى مصدر هذا الصوت..

كانت النافذة تطل على الفناء الكبير في سجن "بيستر"، وكان هذا

الفناء يعج بالناس حيث كان صفان من جنود السجن القدامى الأشداء يجدان مشقة كبيرة في الاحتفاظ بممر مفتوح عبر الفناء بين هذه الكتل من الجماهير، وبين هذين الصفين من الجنود كانت خمس عربات "كارو" محملة بالرجال تتقدم في بطء وهي تتعثر عند كل "بلاطة".. كان هؤلاء الرجال هم السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الذين تقرر رحيلهم.

كانت هذه العربات مكشوفة، وكانت كل واحدة منها محملة بمجموعة من السجناء تربطهم إحدى السلاسل الطويلة الخمس، وقد جلسوا على جانبيها وأتكأ بعضهم على بعض، تفصل بينهم السلسلة المشتركة التي كانت تمتد بطول العربة، والتي كان يقف عند آخرها على قيد خطوة من سلمها جندي يشمر بندقية معدة للاطلاق. وكانت صلصلة الاصفاد الحديدية تسمع عند كل هزة من هزات العربة، كما كانت رءوس السجناء ترى وهي تقفز، وسيقانهم المعلقة تتأرجح هنا وهناك.

وكان ثمة رذاذ نافذ يثلج الهواء ويجعل سراويل السجناء الرمادية المصنوعة من التيل والتي كانت قد أسودت، يجعلها تلتصق بركباتهم، وكان ماء المطر يتصبب من لحاهم الطولة ومن شعرهم القصير ويغمر وجوههم التي صارت بنفسجية اللون وكنت أراهم وهم يرتجفون وقد أخذت أسنانهم تصطك من البرد والغضب.

وكان هؤلاء السجناء من جهة أخرى عاجزين عن الحركة، إذ أن المرء عندما يربط بسلسلة كهذه فإنه لا يصبح إلا جزءا من تلك الكتلة القبيحة

التي يسمونها "الكردون" والتي تتحرك كأنها رجل واحد.. إن الذكاء لابد عندئذ أن ينمحي، فطوق الليمان الملفوف حول العنق يخنق العقل ويحكم عليه بالموت، أما الحيوان نفسه فيجب ألا تكون له حاجات أو شهية للطعام إلا في ساعات محددة.

وهكذا، فإن السجناء كانوا لا يستطيعون حركة وقد أصبحوا شبه عراة، ورءوسهم حاسرة وأرجلهم معلقة في الهواء. كانوا يبدءون، على هذا النحو، سفرهم الذي يستغرق خمسة وعشرين يوما، وهم محمولون على نفس العربات ويرتدون نفس الثياب، تحت وهج الشمس المحرقة وتحت أمطار نوفمبر الباردة، حتى ليبدو أن الناس كانوا يريدون أن تشاركهم السماء مناصفة القيام بعملهم كجلادين!

وكان قد نشب بين هذا الجمهور وبين العربات حوار رهيب: سب من ناحية، وتحد من الناحية الأخرى، وشكاوي وشتائم من الجانبين.. ولكن ما هي إلا إشارة صدرت من القائد حتى رأيت وابلا من ضربات العصى التي كان يحملها الجنود ينهال على العربات الخمس فيغرق أكتاف السجناء أو رءوسهم بلا تمييز، فعاد كل شئ إلى الهدوء، ولكنه كان ذلك الهدوء الظاهري الذي يسمونه نظاما، إذ كانت أعين هؤلاء التعساء تفيض بالانتقام، وكانت أيديهم تتقلص على ركبهم في عنف ظاهر.

واختفت العربات "الكارو" الخمس، التي كان يحرسها فرسان البوليس وجنود السجون المشاة، واحدة بعد أخرى تحت ذلك الباب

المرتفع ذي "القبوة"، باب سجن "بيستر"، وتبعتها عربة سادسة تكدست عليها المواقد والأواني النحاسية والسلاسل الاحتياطية.. وكان نفر من السجانين قد تأخروا قليلا في المقصف فخرجوا مسرعين ليلحقوا بالعربات، ثم انفض الجمهور وتلاشى هذا المنظر كأنه رؤيا أو خيال عابر، وأخذت الجلبة التي كانت تصدر عن تلك العربات الثقيلة تتضاءل شيئا فشيئا ويضعف معها وقع سنابك الخيل على طريق "فونتينبلو" المرصوف، وقرقعة السياط، وصليل السلاسل، وصيحات الجماهير الذين كانوا يتمنون للسجناء في سفرهم كل المصائب والنكبات.

ومع ذلك، فقد كان هذا بالنسبة إليهم مجرد بداية فحسب!

فماذا كان يقول لي المحامي إذن؟.. الاشغال الشاقة المؤبدة!.. آه! إن الموت خير عندي ألف مرة! إني أفضل المشنقة على الليمان، والفناء على جهنم، وأوثر أن أسلم رقبتي لسكين الدكتور "جيوتان" على أن أسلمها لطوق السجان!

آه! الأشغال الشاقة المؤبدة! رحماك أيتها السماء العادلة!

* * *

لم أكن مريضا لسوء الحظ، واضطررت في اليوم التالي إلى الخروج من مستشفى السجن لتتلقفني الزنزانة مرة ثانية.. إنني لست مريضا! هذا حق، فأنا شاب قوي، أستمتع بصحة جيدة ويجري الدم في عروقي في حرية، وكل أعضاء جسمي تطيع سائر نزواتي.. أنا قوي الجسم والروح، وتكويني

يمكنني من أن أعيش طويلا.. نعم، إن هذا كله صحيح.. ومع ذلك، فإني مصاب بمرض آخر، بمرض مميت من صنع يد الإنسان، فمنذ أن خرجت من مستشفى السجن تملكتني فكرة مؤلمة، فكرة سوف تورثني الجنون! فقد خطر ببالي أني ربما استطعت الهرب لو أنهم تركوني في هذا المستشفى، فهؤلاء الأطباء والراهبات كان يبدو أنهم يعنون بأمري.. إنني سوف أموت هكذا وأنا بعد شاب صغير السن.. سوف أموت مثل هذه الميتة الشنعاء!

لقد بدا لي أنهم كانوا يرثون لحالي لكثرة ما كانوا يحومون حولي ويتزاحمون إلي جوار سريري.. آه! صمتا أيها التعيس!.. فهو مجرد حب استطلاع فحسب.. وفوق هذا، فهؤلاء الأشخاص وإن حاولوا انقاذي حقا من الحمى، فليس في استطاعتهم أن ينقذوني من حكم الاعدام! ومع ذلك، أفليس الأمر يسيرا عليهم للغاية؟ مجرد باب يترك مفتوحا! ماذا يضيرهم لو أنهم فعلوا ذلك؟

ولكن واحسرتاه! لم تعد أمامي فرصة الآن.. إن طلب الاستئناف الذي تقدمت به سوف يرفض لأن كل شئ قد سار طبقا لنص القانون، فقد شهد الشهود شهادة كاملة، وترافع المترافعون مرافعة جيدة، وحكم القضاة حكما صحيحا! إنني لا أعول على الاستئناف، اللهم إلا.. كلا، كلا.. إن هذا سرب من الجنون! ولم يعد ثمة أمل! فطلب استئناف الحكم ليس إلا حبلا يمسك بتلابيبك وأنت معلق فوق الهوة فتسمعه وهو يتآكل قليلا قليلا مع كل لحظة حتى ينقطع تماما.. إنه كسكين المفصلة عندما

تهوى على عنق المرء في ستة أسابيع!

آه لو صدر عفو عني!.. عفو؟!.. من ذا الذي سوف يصدره؟ ولماذا؟ وكيف؟.. من المحال أن يصدر العفو عني، كل ذلك عبرة للناس، وضرب مثل.. كما يقولون.

لم تعد هناك أمامي سوى ثلاث خطوات أخطوها، ثلاث فحسب: سجن "بيستر".. ثم سجن "الكونسيير جوري".. وأخيرا، ساحة الاعدام!

* * *

وكنت قد جلست في الشمس بجوار النافذة خلال الساعات القليلة التي قضيتها في المستشفى.. إن الشمس قد عادت إلى الظهور، أو على الأقل، كنت أتلقى من أشعتها كل ما كانت تسمح لي به منها قضبان النافذة الحديدية.. جلست هناك وقد وضعت رأسي الثقيل المحموم بين يدي اللتين كانتا لا تقويان على حمله، واسندت مرفقي إلى ركبتي وقدمي إلى قضبان مقعدي، لأن الانهاك كان قد بلغ مني مبلغا جعلني أنحني وأنثني على نفسي كما لو كنت جسما لم تعد في أوصاله عظام ولا في لحمه عضلات.

وكانت رائحة السجن التي تزكم الانوف تخنقني أكثر من أي وقت مضى، وكانت أصوات كل هؤلاء السجناء المختلطة بصليل سلاسلهم لا تزال تطن في أذني، وكنت أقاسي كللا كبيرا في سجن "بيستر"، حتى أنه كان يبدو لي أن الله في عدله ورحمته سوف تأخذه الشفقة بي فيرسل إلى

طائرا صغيرا على الأقل ليغرد هنا أمامي على حافة هذا السقف الاردوازي المنحدر.

ولست أدري إن كان الله الرحيم هو الذي استجاب عندئذ لدعائي أو انه الشيطان الرجيم، فقد سمعت في نفس اللحظة تقريبا صوتا يرتفع تحت نافذتي ولكنه لم يكن صوتا لطائر، وإنما كان أجمل من ذلك بكثير.. كان صوتا نقيا، صوتا نضرا شجيا لفتاة في الخامسة عشرة.. فرفعت رأسي فجأة كإنسان أدركه الفزع، وأخذت أستمع في نهم إلى الأغنية التي كانت ترددها الصبية في نغم بطئ حزين كأنه هديل الحمام.. فجاءني صوتها ينوح قائلا:

كان ذلك في شارع "ماي"..

حيث اعتدى علي قهرا ثلاثة أشقياء..

ثلاثة ملاعين هجموا علي..

ولم أستطع أن أعبر عن مدى مرارة الصدمة التي أحسست بها في تلك اللحظة.. واستطرد الصوت يقول:

لقد هجموا علي وطرحوني أرضا.

ومر شاب من حبنا مصادفة.

فقلت له: إنني في محنة..

فبلغ ذلك لفتيان حينا الشجعان!

فقال لي: "إني هززت شجرة البلوط ونزعت منها كثيرا من الاغصان".

فأوسعهم ضربا حتى تركوني وفررت وحذائي ممزق، وكذلك ملابسي لسوف أرقص مع هذا الفتى في يوم العيد.

ولم يسبق لي أن سمعت هذه الاغنية من قبل، وكنت لا أستطيع ان أسمع المزيد من كلماتها التي كانت تحمل بين طياتها شكوى مفهومة وغامضة معا.. كما غنت الفتاة كذلك أغنية تقص شجارا وقع بين مجرم وبين رجال البوليس، وتتحدث عن لص يقابل شخصا ويرسله إلى زوجته بهذه الرسالة الرهيبة: "إني قتلت رجلا وقبض علي"، وأغنية أخرى جاء بها: إن سيدة ذهبت إلى قصر "فرساي" لتشكو مجرما إلى الملك، وأن صاحب الجلالة قد ثار لذلك، وقال متوعدا المذنب أنه "سيجعله يرقص دون أن تكون هناك" أرضية "تحت قدميه".

كانت الصبية تردد كل تلك الأغاني في نغمة حلوة تفيض بالرقة والحنان، وفي صوت لم تسمع أذن امرئ قط أشجى ولا أعذب منه! حتى أنني جمدت في مكاني محطما مبهوتا تغمرني الحسرة والأسف! فقد كانت كل تلك الكلمات الفظيعة المنبعثة من هذا الفم النضر الجميل شيئا يبعث على الاشمئزاز حقا.. كانت تبدو وكأنها لعاب قوقعة فوق وردة يانعة؟

وما أنا بمستطيع أن أصوت ما كنت أشعر به وقتئذ، لقد كنت مجروحا، ومسرورا في آن واحد! إن لهجة الكهف والليمان، هذه اللغة

الدامية الفظة ذات الرنة الكئيبة والطابع العامي التي امتزجت بصوت فتاة يافعة في فترة انتقال لطيفة بين صوت طفلة وصوت امرأة، كل تلك الألفاظ رديئة الصياغة كانت الفتاة تغنيها، وترتلها، وتنظمها دررا ثمينة.

آه! ما أشد عار السجن وشناعته! إن فيه لسما يلطخ كل شئ. كل شئ فيه يذبل، حتى أغنية فتاة لا تتجاوز الخمسة عشر بيعا.. إذا عثرت فيه على طير، وجدت جناحه ملطخا بالوحل.. وإن قطفت به زهرة وشممتها، تأذيت من رائحتها البغيضة.

آه لو كنت أستطيع الفرار، لجريت عندئذ خلال الحقول بكل ما أوتيت من قوة وعزم!

كلا، فليس ينبغي أن أجري وقتئذ، فذلك يلفت الأنظار ويبعث على الريبة والشك، بل إن الأمر على العكس، إذ يجب علي أن أسير في تؤدة وأنا أغني مرفوع الرأس.. يجب أن أحاول جاهدا أن أحصل على قميص عتيق مفتوح أزرق اللون وبه رسووم حمراء، فهذا يحكم التنكر، إذ أن كل بائعي الخضر في الضواحي يلبسون مثل ذلك.

إني أعرف على مقربة من "أركوي" أجمة من الأشجار بجوار مستنقع من المستنقعات حيث كنت أتردد مع رفاقي لصيد الضفادع في يوم الخميس من كل أسبوع عندما كنت طالبا بالمدرسة الثانية، وسوف أختبئ هناك إلى أن يهبط الظلام، ثم استأنف سيري تحت جمح الليل كي أذهب إلى "فنانسين".. كلا، كلا.. فسوف يحول النهر هناك يبني وبين المضي

قدما، سوف أيمم إذن شطر "أرباجون" – وسوف يكون من الأوفق أن اتجه ناحية "سان جرمان"، ثم أذهب إلى "الهافر" واستقل أية سفينة إلى انجلترا – ولكن ما جدوى كل ذلك؟ إذ لا أكاد أصل إلى "لونجيمو" حتى يمر بي جندي من رجال البوليس ويطلب إلى أن أبرز بطاقتي الشخصية!.. إنني هالك لا محالة! لقد ضعت!

آه! يا لي من حالم بائس! علي إذن أن أحطم الجدار أولا.. أن أحطم الجدار الذي يسجنني وسمكه ثلاث أقدام!.. الموت يا الهي!.. الموت!

عندما أفكر في أني أتيت إلى هنا، إلى "بيستر"، وأنا غلام صغير لأرى البئر الكبيرة.. والمجانين آه!

* * *

وفيما أنا عاكف على كتابة هذا كله ذوي نور مصباحي وطلع الفجر.. ثم دقت ساعة الكنيسة الصغيرة تعلن السادسة.

ما معنى ذلك؟.. إن حارس زنزانتي النوبتجي دخل لتوه عندي وخلع قبعته، ثم حياني معتذرا عما سببه لي من ازعاج، وطلب مني أن أعين له ما أريده طعاما لفطوري، طلب مني هذا، وهو يحاول جاهدا أن يكسب نبرات صوته الغليظ الخشن مسحة من الرقة والظرف، فاجتاحتني رجفة عاتية، وهمس في أعماقي صوت يقول: "ترى أيتم اليوم تنفيذ الحكم؟".

نعم.. إنه اليوم!

لقد حضر مدير السجن بنفسه لزيارتي وسألني كيف يستطيع أن يرضيني وكيف يمكن أن يكون نافعا لي في أي شئ، وعبر لي عن أمله في ألا تكون لدي أية شكوى منه أو من مرءوسيه، ثم سألني في اهتمام عن صحتي، وعن الحال التي قضيت فيها الليل.. وخاطبني بقوله: "يا سيدي" وهو يغادر الزنزانة!

إنه اليوم!

إن هذا السجان لا يعتقد أن لدي شكوى منه أو من مرءوسيه.. إنه على حق، فسوف لا تنفعني الشكوى.. إنهم قد قاموا بواجبهم فحرسوني خير حراسة، وفوق هذا، فقد كانوا مؤدبين عند وصولي وعند رحيلي.. أفلا ينبغي إذن أن أكون راضيا مسرورا؟

إن هذا السجان الطيب إنما يمثل السجن مجسما، بابتسامته الساذجة العذبة، وكلماته الرقيقة اللطيفة، وعينه التي تمتدح وتتجسس، ويديه الضخمتين العريضتين.. إن سجن "بيستر" قد تقمص هذا الرجل.. كل شئ من حولي هو سجن بالنسبة إلي! إني أجد السجن في جميع الصور والاشكال.. أجده في صورة الإنسان كما أجده في شكل القضبان أو في المزاليج والاقفال.. فهذا الجدار سجن من الحجر، وذاك الباب سجن من الخشب، وهؤلاء الحراس سجن من لحم وعظم.. إن السجن كائن خفي رهيب شامل لا يتجزأ، نصفه سكن ونصفه انسان، وأنا فريسته، وهو يحيطني بمخالبه ويحتضنني بكل جوارحه وثناياه، فهو يغلق على جدرانه

المبنية من الجرانيت، ويقفل علي بأقفال من الحديد، ويراقبني بعيني السجان.

آه! يالي من بائس. ماذا سيحدث لي؟ ماذا سيفعلون بي؟

الكاهن

إنني الآن هادئ، فقد انتهى كل شئ، انتهى تماما.. لقد خرجت من دوامة القلق المرعبة التي كانت قد ألقتني فيها زيارة الطبيب. ذلك أني أعترف بأني كنت لا أزال آمل، أما الآن، والحمدلله، فلم يعد ثمة أمل لي.. وهذا هو ما حدث منذ لحظة:

حينما دقت الساعة معلنة السادسة والنصف – بل إن ذلك كان في الربع الأخير من هذا النصف – فتح باب زنزانتي من جديد ودلف إليها شيخ أشيب الشعر، يرتدي "ردنجوتا" قاتم اللون. وفتح الرجل "الردنجوت" قليلا فرأيت ثيابه البيضاء، "وياقته" الناصعة. لقد كان قسيسا.

لم يكن هذا القسيس واعظ السجن، وهذا أمر كئيب. وجلس الرجل قبالتي، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة، ثم هز رأسه ورفع بصره إلى السماء، أعني إلى السقف، سقف الزنزانة!.. لقد فهمت!

وقال لي رجل الدين:

– أأنت على استعداد يا بني؟

فأجبته قائلا في صوت مختنق:

– لست مستعدا ولكنني "جاهز"!

ومع ذلك، فقد غامت عيناي، واضطرب بصري، ونضح من كل أعضاء جسمي عرق بارد غزير، وأحسست بصدغي ينتفخان، وامتلأت أذناي بالطنين.

وكان الشيخ الطيب يتكلم، بينما كنت أترنح على مقعدي كإنسان نائم، أو هذا هو على الأقل ما بدا لي في تلك اللحظة، وأحسبني أذكر أني رأيت شفتيه تتحركان، كما رأيت بريق عينيه، واهتزاز يديه.

وفتح باب الزنزانة مرة أخرى، فأخرجني صرير المزاليج من ذهولي وقطع على الرجل حديثه، ثم دخل سيد لم أره من قبل، يرتدي ثيابا سوداء ومعه مدير السجن. وقدم الرجل نفسه إلي، وحياني في احترام عميق. وكانت ترتسم على وجه الرجل مسحة من حزن "رسمي" مصطنع، هو نفس الحزن الذي تراه على وجه اللحاد "الحانوتي" ومعاونيه، وكان يمسك في يده ورقة ملفوفة.

وقال لي الرجل وهو يبتسم ابتسامة مؤدبة:

– سيدي.. إني "محضر" من قبل محكمة باريس الملكية، ويشرفني أن أحمل لك رسالة من قبل السيد النائب العام

فأجبته قائلا بعد أن ذهب عني أثر الهزة الأولى، واستعدت حضور ذهني كله:

– إنه السيد النائب العام ذاته الذي طالب برأسي في الحاح، وأنه لشرف كبير لي يا سيدي أن يكتب إلي، وآمل أن يثلج موتي صدره ويدخل على نفسه أبلغ السرور، إذ يشق على أن أعتقد أنه ألح في طلب موتي بحماس كبير في الوقت الذي لن يهتم فيه بهذا الامر بعد الآن

لقد قلت هذا كله وسكت لحظة، ثم استطردت أقول في صوت ثابت النبرات: "اقرأ ما عندك إذن يا سيدي!"

فأخذ "المحضر" يقرأ علي رسالة طويلة، وهو يتغنى في نهاية كل سطر، ويتردد في وسط كل كلمة. كان ذلك رفضا للطلب الذي تقدمت به لاستئناف الحكم. وأضاف الرجل قائلا بعد أن فرغ من تلاوة رسالة النائب العام، ودون أن يرفع بصره عن أوراقه المدموغة: "إن الحكم سينفذ اليوم في ساحة الاعدام، وسوف ترحل في تمام الساعة السابعة والنصف إلى سجن "لاكونسيير جوري". هل لك أن تتفضل فتتبعني يا سيدي العزيز؟"

وكنت لم أعد أنصت إلى الرجل منذ وقت ليس بقصير. وكان مدير السجن يتبادل الحديث مع القسيس، بينما ظلت عينا "المحضر" مثبتتين على أوراقه، وكنت أنا إلى جوار الباب الذي كان لا يزال مواربا. آه! أيها التعس! هناك في الدهليز أربعة حراس معهم بنادقهم!

وأعاد "المحضر" سؤاله علي وهو ينظر إلي في هذه المرة، فأجبته قائلا:

– سأتبعك يا سيدي في أي وقت تريد. إني رهن إشارتك! فحياني قائلا وهو يتهيأ للانصراف:

– سوف أتشرف بالحضور لأصطحابك معي بعد نصف ساعة.

وانصرف الجميع عندئذ وتركوني وحدي.

* * *

يا الهي! أما من وسيلة للفرار؟ أية وسيلة كانت؟ يجب أن أهرب. هذا لابد منه، وفي الحال! من الأبواب، من النوافذ، أو من خلال فتحات أخشاب السقف، حتى لو كلفني هذا أن أترك لحمي على هذه الألواح! يا للغضب! يا للشياطين! يا للعنة! لسوف تلزمني أشهر بأكملها لنقب هذا الجدار، إن كانت هناك آلات جيدة، مع أني لا أملك مسمارا واحدا، ولم تعد أمامي حتى ساعة واحدة!

الفصل الثالث

الطريق إلى الموت

في سجن "لاكونسيير جوري"

هأنذا قد نقلت كما قال "المحضر"، غير أن الرحلة جديرة بأن تروى..

كانت الساعة تدق السابعة والنصف عندما ظهر المحضر مرة أخرى على عتبة زنزانتي. وقال لي الرجل: "إني في انتظارك يا سيدي".

يا للأسف! إنه كان ينتظرني حقا، وكان معه آخرون!

فنهضت من مكاني وخطوت خطوة واحدة، فبدا لي لحظتها أني سأعجز عن أن أخطو خطوة أخرى لشدة ما كنت أشعر به من ثقل في رأسي وخور في ساقي، ولكني مع ذلك تمالكت نفسي، وتابعت السير في شئ من الإرادة والثبات. وألقيت نظرة أخيرة على سجن "بيستر" قبل أن أغادره – فقد كنت أحب زنزانتي هذه – ويؤسفني أني تركتها خالية ومفتوحة، مما أكسبها مظهرا غريبا!

إنها لن تظل هكذا طويلا على كل حال، فقد كان حاملو مفاتيح السجن يقولون أنهم ينتظرون شخصا سوف ينزل فيها في هذه الليلة، وهو رجل محكوم عليه، كانت محكمة الجنايات بصدد النظر في أمره في هذه الساعة.

ولحق بنا الواعظ في نهاية الدهليز، وكان الرجل قد فرغ للتو من تناول طعامه، وعند خروجي من الزنزانة، أمسك مدير السجن بيدي في عطف، وشدد على الحراسة بأربعة جنود من حراس السجن القدامى.. وأمام باب مستشفى السجن، صاح بي شيخ يحتضر قائلا: "إلى اللقاء!"

وبلغنا الفناء واستنسقت الهواء، فأراحني هذا بعض الشئ ولم نمش طويلا، إذ كانت هناك عربة تجرها جياد قوية واقفة في الفناء الأول.. آه! إنها نفس العربة التي كانت قد نقلتني إلى هنا. كانت من نوع العربات المستطيلة المكشوفة، ومقسمة إلى قسمين بقضبان من حديد، تتقاطع على شكل شبكة شديدة الكثافة، وكان لكل قسم من قسميها باب، أحدهما في مقدمة العربة، والثاني في مؤخرتها. وكانت العربة بأسرها شيئا بالغ القذارة، أسود اللون حالكه، ومغطى بالغبار، إلى حد أن عربة نقل الموتى كانت تبدو إلى جوارها كأنها عربة لتتويج الملوك.

وقبل أن أدفن في هذا القبر ذي العجلتين، ألقيت نظرة على الفناء، نظرة انسان يائس، كان يأمل بها أن تتداعى من أمامه الجدران. كان الفناء وهو مكان صغير مزروع بالأشجار، كان ممتلئا بالمتفرجين أكثر مما كان يوم تكبيل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة بالاصفاد إذ كان الناس قد احتشدوا بسرعة مذهلة.

وكان مطر الخريف يتساقط وقتئذ كما حدث يوم رحيل السجناء المكبلين بالسلاسل، وهو مطر دقيق بالغ البرودة، لا يزال يهطل في هذه

الساعة التي اكتب فيها، وسوف يستمر طول النهار دون شك، وسوف يستمر كذلك حتى بعد أن أرحل عن هذه الدنيا، وكانت الطرق مملوءة بالمياه "وبالمطبات"، وكان الفناء غارقا في الماء والوحل، وخامرني ساعتها شعور بالسرور لرؤية هذا الجمهور في الوحل.

وصعدنا إلى العربة، فركب المحضر مع أحد الحراس في القسم الأمامي منها وركبت أنا مع القسيس وحارس آخر في المؤخرة، وكان معنا أربعة جنود على ظهور الخيل يحيطون بالعربة، وهكذا كان هناك ثمانية رجال – إذا استثنينا سائق العربة – يحرسون رجلا واحدا.

وفيما كنت أهم بالصعود إلى العربة رأيت امرأة عجوزا ذات عينين رماديتين كانت تقول: "إني أفضل هذا كثيرا على السلاسل!".

إنني أفهم ذلك، فهو منظر يحيط به المرء بنظرة واحدة، يحيط به في سهولة وسرعة أكثر مما يحيط بمنظر السلاسل، وهو منظر جميل مثل هذا المنظر الأخير، ولكنه أكثر منه راحة، وليس فيه ما يسليك، إذ أنه ليس هناك سوى رجل واحد، وعلى هذا الرجل وحده يقع من الكوارث ما يعادل الكوارث التي تقع على كل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مجتمعين، غير أن الشقاء فيه ليس موزعا بين كثرة من الناس، وإنما هو مركز، كالخمر المركزة تكون أكثر لذة للشاربين.

وتحركت العربة فند عنها صوت مكتوم وهي تمر من تحت قبوة الباب الكبير، ثم خرجت إلى عرض الشارع، فأغلق خلفها باب سجن "بيستر"

الثقيل. وكنت احس في ذهول بأني محمول كأنسان فاقد الوعي، لا يستطيع أن يتحرك أو يصيح، ويشعر بان أناسا يدفنونه، وكان رنين الاجراس الصغيرة المعلقة في رقاب الخيل يصل إلى سمعي في غير وضوح، تلك الأجراس التي كانت تجلجل بطريقة منتظمة في رقاب جياد العربة وكأنها مصابة "بالزغطة"، وكانت عجلات العربة المغطاة بالحديد تتخبط على الطريق المرصوف، أو تحتك بصندوق العربة وهي تتنقل من "مطب" إلى "مطب"، محدثة صوتا يختلط بوقع سنابك الخيل التي تحيط بالعربة لحراستها، وقرقعة السوط الذي يحمله السائق، كل ذلك كان يبدو لي كأنه دوامة تحملني وتلفني في طياتها.

ومن خلال قضبان نافذة صغيرة في العربة كانت مفتوحة أمامي، كانت عيناي مثبتتين بصورة آلية على كلمات محفورة بأحرف كبيرة في الجدار فوق الباب الرئيسي لسجن "بيستر"، "ملجأ الشيخوخة". وكنت أقول في نفسي: عجبا! يبدو أن هناك أناسا يشيخون هنا!

وكما يفعل المرء بين اليقظة والنوم، أخذت أقلب هذه الفكرة على كل جوانبها في نفس الحالة من الألم، وفجأة تغير المنظر الذي كنت أراه من خلال تلك الطاقة الصغيرة في اللحظة التي انتقلت فيها العربة من الشارع العريض إلى الطريق الرئيسي، وأخذت أبراج كنيسة "نوتردام" تبدو لعيني باهتة زرقاء في ضباب باريس من خلال ذلك المنفذ الضيق، فتغيرت كذلك وجهة نظري على الفور. ذلك أني كنت قد أصبحت آلة مثل هذه العربة.

وأعقبت فكرة سجن "بيستر" فكرة أبراج "نوتردام"، فقلت في نفسي وأنا أبتسم في غباء: إن الذين يكونون في أعلى البرج حيث يوجد العلم سوف يرون مرور العربة على صورة أوضح.

وأظن أن القسيس قد استأنف حديثه معي في تلك اللحظة بالذات، فتركته يتكلم وأنا أستمع إليه في صبر، إذ كان يطن في أذني هدير عجلات العربة، مختلطا بوقع سنابك الخيل، وقرقعة السوط، وكان هذا الصوت الأخير صوتا اضافيا.

وجلست أنصت في صمت إلى وقع هذا الكلام الذي كان يطرق أذني على وتيرة واحدة، كأنه خرير ماء النافورة، فقد كان كلامه يزيد خواطري خمولا على خمول، وتمر ألفاظه من أمامي متنوعة دائما ولكنها دائما نفس الشئ، شأنها شأن الأشجار المرصوصة على جانبي الطريق العريض، عندما هزني فجأة صوت "المحضر" الموجز المتقطع – وكان جالسا في المقدمة – إذ جاءني يقول في لهجة تكاد تفيض مرحا: "حسنا يا سيدي القسيس! ما هو الجديد الذي تعرفه؟".

وكان الرجل وهو يقول ذلك ملتفتا نحو القسيس، فلم يرد عليه هذا الأخير، إذ كان يتحدث إلى دون انقطاع، وكان العربة يصم أذنيه عن السماع. فاستطرد "المحضر" قائلا وهو يرفع عقيرته في هذه المرة، كي يعلو صوته على هدير العجلات: "حقا إنها عربة جهنمية!".

"وسكت لحظة قصيرة ثم أردف يقول: "إنها "المطبات" دون شك،

هي التي تجعل أحدنا لا يسمع الآخر. ماذا كنت أريد أن أقول؟ آه! نعم، قل لي يا سيدي القسيس لو تفضلت.. هل تعرف الخبر الجديد في باريس اليوم؟".

فانتفضت كما لو كان الرجل يتحدث عني، بينما أجابه القسيس قائلا بعد أن سمعه أخيرا:

- كلا، لم أجد متسعا من الوقت لقراءة صحف الصباح، وسوف أرى ذلك في المساء. إنني حينما أكون مشغولا هكذا طول اليوم، أوصي البواب بأن يحتفظ لي بالصحف حتى أقرأها عند عودتي في المساء.

- أوه! من المستحيل أنك لا تعرف خبر باريس! خبر هذا الصباح!

وهنا تدخلت في الحديث قائلا:

- احسب أني أعرف هذا الخبر.

فنظر إلى المحضر ثم قال:

- أنت! أحقا؟ اذن فما هو رأيك؟

فقلت له:

- إنك محب للاستطلاع!

فأجابني الرجل بقوله:

- لماذا يا سيدي؟ ان لكل منا رأيه السياسي، وأنا أحترمك إلى حد

أني أعتقد أن ليس لك رأي في هذا الموضوع. أما أنا فإني موافق تماما على إعادة تكوين الحرس الوطني. لقد كنت جاويش سريتي وكان ذلك حقا شيئا لطيفا للغاية..

فقاطعته قائلا:

– كنت أظن أنك لا تعني هذا الخبر.

– وأي خبر لديك إذن؟ لقد كنت تقول أنك تعرف الخبر.

– كنت أتحدث عن خبر آخر تهتم به باريس كذلك.

ولم يفهم الغبي، غير أن حبه للاستطلاع تيقظ، فقال في لهفة:

– خبر جديد؟ وإني لك أن تعرف هذه الاخبار بحق الشيطان؟ ما هو هذا الخبر الذي لديك إذن يا سيدي العزيز؟ أتعرف هذا الخبر يا سيدي القسيس؟ هل أنت اكثر مني دراية بهذه الأخبار؟ انبئوني بهذا الخبر من فضلكم. ما الذي حدث؟ ألا تفهمونني؟ إني أحب الأخبار لأني أقصها على السيد رئيس المحكمة فهذا يسليه كثيرا.

وأخذ المحضر يهذي بمئات من مثل هذا الهذيان وهو يلتفت نحو القسيس تارة وإلي تارة أخرى، فكنت لا أرد عليه إلا بهزة من كتفي، فقال لي آخر الأمر:

– حسنا! فيم تفكر إذن؟

– أفكر في أني لن أفكر بعد هذا المساء!

–آه! أهو كذلك؟.. هيا! إنك حزين أكثر مما ينبغي! لقد كان السيد كاستانج يتحدث رغم محنته

وسكت الرجل لحظة ثم أضاف يقول: – لقد رافقت كذلك السيدة "بابا فوان"، وكان يرتدي قبعته الفاخرة ويدخن سيجارا. أما فتيان مدينة "لاروشيل" فقد كانوا لا يتحدثون إلا فيما بينهم ولكنهم كانوا يتحدثون على أية حال.

وصمت المحضر لحظة أخرى ثم عاد يقول: إنهم كانوا مجانين! كانوا متحمسين للغاية! وكان يبدو عليهم أنهم يحتقرون كل الناس. أما أنت أيها الشاب فاني أجدك مفكرا حقا.

فقلت له:

– أنا شاب؟. إني أكبرك في السن؟ إن كل ربع ساعة يمر يجعلني أشيخ بمقدار سنة!

والتفت "المحضر" نحوي ونظر إلي في دهشة تنطوي على الغباء لبضع دقائق ثم شرع يضحك ضحكا ثقيلا وهو يقول:

– أوه! عجبا! أتريد أن تمزح؟ أنت أكبر مني سنا وقد أكون في سن جدك!

فأجبته قائلا في جد ورزانة:

– إني لا أرغب في المزاح.

وفتح الرجل علبة طباق كانت معه وهو يقول:

– خذ هذه يا سيدي العزيز ولا تغضب. خذ مضغة من الطباق ولا تحتفظ لي في نفسك بأية نقمة علي.

– لا تخش شيئا فلن يتسع الوقت أمامي للغضب عليك.

وفي تلك اللحظة، ارتطمت علبة الطباق بالقضبان التي كانت بيني وبينه في عنف، من جراء أحد "المطبات" فسقطت مفتوحة من يده تحت قدمي الجندي فصاح "المحضر" قائلا:

– يا لهذه القضبان اللعينة!

ثم التفت إلي وهو يقول: "حسنا! ألست شقيا؟ هأنذا قد فقدت كل ما معي من طباق"!

فأجبته قائلا وأنا ابتسم ابتسامة شاحبة:

– إني! فقد كثر مما تفقده أنت.

وحاول الرجل أن يجمع طباقه وهو يتمتم قائلا من بين أسنانه:

– أكثر مما أفقد؟ هذا كلام يسهل قوله! سوف أبقى بغير طباق حتى نبلغ باريس! إن هذا لشئ رهيب!

وواساه الواعظ في تلك الحظة ببعض كلمات العزاء. ولست أدري ما إذا كنت مفكرا مهموما، ورويدا رويدا سار الحديث بين القسيس

و"المحضر"، فتركتهما يتحدثان معا وانصرفت إلى خواطري.

ولا شك في أني كنت لا أزال مستغرقا في التفكير حينما اقتربنا تماما من أبواب باريس، ولكن خيل إلى أن ضوضاء المدينة صارت أكثر من المألوف. وتوقفت العربة لحظة أمام "كشك" الجمارك حيث قام بتفتيشها موظفو جمرك البلدية وكأن العربة كانت تحمل خروفا أو ثورا يساق إلى المذبح لوجب أن تدفع من أجله مبلغا من المال، غير أن الرأس البشري لا تدفع عنه رسوم جمركية، فمررنا.

واجتزنا الضواحي ثم دخلت العربة مسرعة في تلك الشوارع العتيقة المعقدة في حي "سان مارسو" وحي "لاسيتي" التي تتلوى وتتقاطع كأنها آلاف الطرق في مدينة النمل، وكان ضجيج العربة قد أصبح فوق "بلاطها" عاليا متتابعا إلى حد أنني لم أعد أسمع أي شئ آخر. وكنت كلما ألقيت نظرة من خلال الطاقة الصغيرة المربعة، بدا لي أن أمواجا من المارة كانت تتوقف لتنظر إلى العربة المنكودة وأن شراذم من الصبية كانت تعدو وراءها، كما بدا لي أني كنت أرى هنا وهناك، من حين لآخر، عند مفارق الطرق رجلا أو امرأة عجوزا في ثياب مهلهلة – وأحيانا كليهما معا – وهما يمسكان في أيديهما برزمة من الورق المطبوع كان المارة يتخطفونه، ويفتحان فميهما كأنهما يصيحان صياحا عاليا.

وكانت الساعة تدق معلنة الثامنة والنصف في بناء المحكمة لحظة وصولنا إلى فناء سجن "لاكونسيير جوري" إن منظر هذا السلم الكبير،

وتلك الكنيسة الصغيرة السوداء ونوافذ "زنزانات" السجناء الكئيبة قد أرسل في بدني برودة الثلج، وبدا لي في اللحظة التي وقفت العربة فيها أخيرا أن ضربات قلبي على وشك أن تتوقف كذلك.

واستجمعت أطراف قواي الواهنة حينما فتح باب العربة في مثل وميض البرق، وقفزت خارج هذه الزنزانة المتحركة وتقدمت في خطوات واسعة تحت قبوة السجن بين صفين من الجنود. آه! ها هو ذا الجمهور قد تجمع سريعا في طريقي.

* * *

وكنت أشعر بأني أكاد أكون حرا وعلى سجيتي طيلة اللحظات التي اجتزت فيها دهاليز دار القضاء، ولكن عزمي قد تخلى عني عندما فتحوا أمامي أبوابا منخفضة وممرات داخلية وسلالم سرية، ودهاليز أخرى طويلة مخنوقة ومكتومة لا يطرقها إلا الذين يصدرون الأحكام أو تصدر عليهم الأحكام.

وكان "المحضر" في رفقتي على الدوام، أما القسيس فكان قد تركني ليعود بعد ساعتين. إن الرجل كانت لديه مشاغله

وقادوني إلى مكتب المدير حيث أسلمني المحضر إليه "يدا بيد" لقد كان هناك تبادل، إذ رجاه المدير أن ينتظر لحظة قائلا له ان لديه صيدا سيكون معدا للتسليم على الفور كي ينقله مباشرة إلى سجن "بيستر" في نفس العربة. فقلت لنفسي أن هذا الصيد هو دون شك ذلك المحكوم

عليه الذي يجب أن ينام الليلة على حزمة القش التي لم يتسع الوقت أمامي لأستهلكها.

فقال: "المحضر" للمدير: – حسنا، سوف أنتظر لحظة، وسنقوم بعمل المحضرين معا إن كان هذا ييسر الأمور

وفي انتظار ذلك، وضعوني في مكتب صغير ملاصق لمكتب المدير، حيث تركت وحدي وأوصدت الأبواب علي في إحكام، ولست أدري فيم كنت أفكر ولا كم من الوقت مضى علي هناك، عندما طرقت أذني ضحكة عنيفة مفاجئة أيقظتني من حلمي. فرفعت عيني وأنا أرتجف، فعرفت أني لم أعد وحدي في هذه الزنزانة، إذ كان معي رجل في نحو الخامسة والخمسين من عمره، متوسط القامة، محدودب الظهر، أشيب الرأس بعض الشئ، ووجهه حافل بالتجاعيد. وكانت أعضاء الرجل قوية عريضة، أما عيناه فرماديتا اللون، بهما حور بسيط، وتعلو شفتيه ابتسامة مرة. وكانت هيئته تبعث على الاشمزاز، بقذارته وثيابه المهلهلة التي لا تكاد تستر إلا نصف جسمه.

ويبدو أن الباب كان قد فتح ليزج بهذا الرجل إلى داخل هذه الزنزانة الصغيرة، ثم أغلق مرة ثانية دون أن أفطن إلى ذلك.

آه لو كان الموت يأتي هكذا!

وأمعن كل واحد منا النظر إلى وجه الآخر لعدة ثوان وهو يمد في ضحكته التي كانت كحشرجة المحتضر، وأنا نهب لمزيج من الدهشة والذعر.

فقلت له أخيرا:

– من أنت؟

فأجابني الرجل قائلا:

– هذا سؤال عجيب.. أنا واحد منهم!

فأعدت عبارته متسائلا في دهشة:

– واحد منهم! ما معنى هذا الكلام؟

ولاحظت أن هذا السؤال قد ضاعف مرحه، فصاح قائلا وهو يضحك في قهقهة مدوية:

– معناه أن السكين ستلعب برأسي بعد ستة أسابيع كما ستداعب رأسك بعد ست ساعات.. ها! ها! ها! يبدو أنك قد فهمت الآن!

والواقع أني شعرت في تلك اللحظة بأن الدماء تغيض من وجهي وبأن شعري يقف في رأسي. لقد كان هذا الرجل هو خليفتي في سجن "بيستر" الذي كانوا ينتظرونه هناك، كان هو الرجل الذي صدر عليه اليوم حكم بالاعدام.

وصمت الرجل لحظة قصيرة ثم تابع حديثه فقال:

– ماذا تريد؟ هذه هي قصتي، قصتي أنا، أني ابن لرجل بائس أتعب "شارلو" نفسه ذات يوم للأسف في ربط الحبل حول عنقه، وكان ذلك في

عهد المشنقة والحمدلله، فلم أكد أبلغ السادسة من عمري حتى وجدت نفسي بلا أب ولا أم. وكنت في الصيف أتمرغ في التراب على قارعة الطريق كي يلقى إلي بعضهم "صلديا" من خلال أبواب العربات. أما في الشتاء فكنت أسير حافي القدمين في الوحل وأنا أنفخ في يدي المحمرتين من شدة البرد، وكانت فخذاي تطلان من خلال سروالي،

وبدأت أستعمل يدي في سن التاسعة، فكنت من حين لآخر أنشل جيبا أو أسرق معطفا. وفي سن العاشرة كنت "نشالا"، وما إن بلغت السابعة عشرة حتى صرت لصا، فكنت أحطم أقفال الحوانيت وأستعمل مفاتيح مقلدة. ثم قبض علي بعد أن بلغت سن الرشد حسب نص القانون فأرسلوني إلى الأشغال الشاقة للتجديف على ظهر السفن. إن الليمان شئ شاق، فالمرء ينام فيه على لوح من خشب، ويشرب ماء صرفا، ويأكل خبزا أسود، ويجر وراءه كتلة سخيفة من الحديد لا فائدة منها، ويتلقى ما تيسر من ضربات العصي وضربات الشمس. وإلى جانب هذا فإنهم يقصون له شعره، وأنا الذي كان لي شعر كستنائي جميل! وعلى كل حال، فهذا لا يهم!

وقضيت مدة العقوبة.. خمسة عشر عاما انتزعت من عمري انتزاعا! وكنت في الثانية والثلاثين عندما أعطوني ذات صباح أمرا فالافراج عني من الليمان، مع سبعين فرنكا جمعتها لنفسي خلال خمسة عشر عاما من الأشغال الشاقة، كنت أعمل خلالها ست عشرة ساعة في اليوم، وثلاثين

يوما في الشهر، واثنى عشر شهرا في السنة. وكان هذا سواء لدي، فقد كنت أريد بهذه السبعين فرنكا أن أصبح رجلا شريفا، وكنت انطوي تحت أسمالي البالية على مشاعر أكثر مما يوجد منها تحت ملابس قسيس، ولكن.. فلتبارك الشياطين في صحيفة السوابق! لقد كانت وثيقة الافراج عبارة عن ورقة صفراء مكتوب عليها: ".. أفرج عنه من الليمان"، وكان لزاما علي أن أبرز هذه الورقة حيثما ذهبت، وأن أقدمها كل ثمانية أيام إلى عمدة القرية التي كانوا يرغمونني على الاقامة فيها. يا لها من تزكية جميلة! لقد كان الناس يخافون مني، وكان الصبيان يفرون عندما يرونني، وكانت الأبواب توصد في وجهي إذا مررت! ولم يشأ أحد أن يعطيني عملا، فأنفقت السبعين فرنكا على طعامي، ثم كان علي أن أعيش، فشمرت عن ساعدي المفتولين هنا وهناك، ساعدي اللذين يصلحان تماما للعمل، ومع ذلك فقد أقفلت في وجهي كل الأبواب. وعرضت أن أعمل اليوم بأكمله لقاء خمسة عشر مليما، ثم بعشرة مليمات، وأخيرا بخمسة! ولكن دون جدوى، فماذا أفعل؟

وشعرت ذات يوم بجوع شديد، فكسرت بمرفقي زجاجا في واجهة حانوت خباز وخطفت رغيفا، واستطاع الخباز أن يمسك بتلابيبي، فلم أتمكن من أكل الرغيف، وحكم علي بالأشغال الشاقة مدى الحياة في التجديف على المراكب، وختموا كتفي بثلاثة أحرف من نار، وسوف أريك هذا أن أردت. إنهم يسمون هذا النوع من العدالة: "عائدا إلى الاجرام".

هأنذا قد عدت إلى الليمان، وقد ألقوا بي في هذه المرة في ليمان "طولون" ووضعوني مع المجرمين العائدين إلى الاجرام. وكان لزاما على أن أهرب، ولتحقيق ذلك لم يكن أمامي إلا أن أنقب ثلاثة جدران، وأن أقطع سلسلتين، وكان معي مسمار في هذه المرة، واستطعت أن أهرب ذات يوم فأطلقت مدافع الانذار. ذلك أننا معشر العائدين مثل كرادلة روما، ملابسنا حمراء، وتطلق لنا المدافع عند الرحيل. لقد اطلقوا مدافعهم جزافا وبلا نتيجة. وكنت في هذه المرة حرا بلا ورقة صفراء، ولكن لم تكن لدي نقود كذلك.

وقابلت رفاقا كانوا قد قضوا مدة العقوبة أو فروا من السجن، فعرض علي رئيسهم أن أكون واحدا منهم، وكانوا قطاع طرق يغتالون الناس. فوافقت وأخذت أقتل لاعيش، وكنا تارة نهاجم عربة نقل الركاب أو البريد، وأخرى نهاجم مسافرا يسير بمفرده، وثالثة نهاجم تاجر ثيران يمتطي جوادا فكنا نسلب النقود ونترك الدابة أو العربة تهيم كيفما اتفق، أما الرجل فكنا ندفنه تحت شجرة، ونحرص على ألا تبرز قدماه، ثم نرقص بعد ذلك فوق الحفرة التي دفناه فيها، حتى لا تبدو الأرض كأنها نبشت حديثا.. وهكذا شخت وأنا مختبئ في الأحراش، أنام وأنا التحف السماء وأطارد من غابة إلى غابة، غير اني كنت حرا وملكا لنفسي على الأقل. إن لكل شئ نهاية، وهي نهاية لا تختلف عن سواها.

وأطبق علينا البوليس ذات ليلة، فهرب زملائي، ولكنني وقعت –

وأنا أكبرهم سنا – في مخالب هذه القطط التي ترتدي قبعات موشاة بالأشرطة، فساقوني إلى هنا!

وكنت قد تدرجت في كل درجات السجون عدا هذه الدرجة، فسواء سرقت منديلا أو قتلت نفسا، فإن الأمر يستوي من الآن فصاعدا بالنسبة إلى، فقد كانت هناك العودة الثالثة إلى الاجرام، التي طبقت عقوبتها على في هذه المرة، ولم يعد أمامي إلا أن أمر بالمقصلة! لم تستغرق قضيتي وقتا طويلا، إذ أني بدأت أشيخ حقا ولم أعد أصلح لأي شئ! إن والدي قد مات شنقا وأنا سوف أموت بالمقصلة. تلك هي قصتي أيها الزميل!"

وكنت قد مكثت طول الوقت مشدوها وأنا أصغي إليه، ثم عاد الرجل إلى الضحك بصوت أعلى مما كان يفعل في البداية، وهم بأن يصافحني فتراجعت مذعورا إلى الوراء!

فقال الرجل عندئذ:

– يبدو عليك أنك شجاع أيها الصديق، فلا تكن جبانا أمام الموت. أتفهمني؟ إنها لحظة سيئة ستقضيها في ساحة الاعدام، ولكنها ستنتهي بسرعة! لشد ما أريد أن أكون هناك لأريك كيف يسقط الجسد؟ لست أرغب بحق السماء في استئناف الحكم أن أرادوا أن يعدموني معك اليوم. إن نفس القسيس سيتولى أمرنا معا، ولا يهمني أن أحصل على مخلفاتك. ها أنت ذا ترى أنني طيب، أليس كذلك؟ قل لي اذن، ألا ترغب في صداقتي؟

وخطا إلى الأمام خطوة ليقترب مني، فقلت له وأنا أدفعة بعيدا:

– شكرا لك يا سيدي.

وما إن سمع الرجل اجابتي هذه، حتى انفجر ضاحكا من جديد ثم قال:

– سيدي.. آه! آه! إنك ماركيز! إنك لماركيز!

فقاطعته قائلا:

– يا صديقي! إني بحاجة إلى أن أخلو إلى نفسي، فدعني وشأني.

ودفعته جدية كلامي إلى التفكير فجأة، فهز رأسه الرمادي الذي يكاد يكون أصلع، ثم حك بأظافره في صدره ذي الشعر الكث الذي كان يبدو من خلال قميصه المفتوح وتمتم قائلا من بين أسنانه:

– لقد فهمت. إنك تفكر في القسيس!

وبعد بضع دقائق من الصمت استطرد يقول، وقد شاعت في نبرات صوته رنة خجل:

– أنت ماركيز وهذا حسن جدا، ولكن لديك هنا "ردنجوتا" جميلا لن ينفعك في شئ! وسوف يأخذه السجن منك، فأعطني إياه فسوف أبيعه لأحصل على طباق.

فخلعت "الردنجوت" الذي كنت أرتديه، وأعطيته اياه، فأخذ يصفق بيديه

في مرح، كأنه طفل صغير، ولكنه حين رأى أنني كنت أرتعد في قميصي قال لي: "إنك ترتجف يا سيدي من البرد، خذ هذه والبسها فالمطر يتساقط وسوف تبتل، ثم إنه يلزمك أن تكون أكثر وقارا وأنت فوق العربة".

قال هذا وهو يخلع سترته الخشنة المصنوعة من الصوف الرمادي، ثم وضعها على كتفي وأدخل ذراعي في كميها، فتركته يفعل ذلك دون اعتراض أو مقاومة.

وذهبت عندئذ لاتكئ على الجدار، ولن أستطيع أن أصور الأثر الذي تركه هذا الرجل في نفسي، وكان قد أخذ يفحص "الردنجوت" الذي أعطيته أياه، وتصدر عنه من لحظة إلى أخرى صيحات تدل على السرور، ثم أضاف يقول: "إن جيوبه جديدة تماما! والياقة ليست بالية! سوف أحصل في مقابله على خمسة عشر فرنكا على الأقل.. يا للسعادة! سيكون لدي طباق طيلة الاسابيع الستة الباقية لي على قيد الحياة!"

وفتح الباب مرة أخرى. لقد جاءوا لأخذنا نحن الاثنين: أنا إلى الغرفة التي ينتظر فيها المحكوم عليهم بالاعدام ساعة التنفيذ، وهو إلى سجن "بيستر". ووقف الرجل بين الجنود الذين كان عليهم أن يرافقوه، وهو يقول لهم: "آه! يا هؤلاء.. لا تخلطوا بيننا، فقد تبادلنا ملابسنا أنا وهذا السيد. لا تأخذوني بدلا منه، يا للشيطان! إن هذا لم يعد يروق لي الآن وقد أصبح معي ما أستطيع به أن أحصل على الطباق!".

* * *

لقد أخذ مني هذا اللص العجوز "الردنجوت" لأنني لم أهبه إليه في الحقيقة، ثم إنه ترك لي سترته الكئيبة، هذه الخرقة البالية، فكيف ستكون هيئتي إذن؟ إنني لم أتركه يأخذ مني "الردنجوت" عن عدم اكتراث أو بداعي العطف عليه، كلا، ولكن لأنه كان أكثر مني قوة، ولو أني رفضت ما طلب لضربني بقبضة يده الضخمة.

آه! حسنا! نعم، إنه الاحسان! لقد كنت ساعتها أفيض بالمشاعر السيئة، وكنت أتوق لأن اخنق هذا اللص العجوز بيدي، أو أن أسحقه سحقا تحت قدمي!

إني لأشعر بقلبي يطفح بالغضب والمرارة، وأحسب أن مرارتي قد انفجرت! حقا أن الموت يجعل الانسان شريرا غليظ القلب، وقادوني إلى زنزانة ليس فيها إلا جدران أربعة، بنافذتها قضبان كثيرة من حديد وببابها عدد كبير من المزاليج والاقفال وهذا أمر طبيعي، فطلبت منضدة ومقعدا وأدوات للكتابة، فأحضروا لي ما طلبت. ثم طلبت فراشا فحدجني السجان بنظرة تطل منها الدهشة وكأنه يقول: "وما جدوى ذلك؟"

ومع ذلك، فقد نصبوا لي سريرا حقيرا في ركن الزنزانة، ولكن جاء في نفس الوقت حارس ليجلس معي فيما كانوا يسمونه "غرفتي"! ترى هل يخافون أن أخنق نفسي بالفراش؟

* * *

آه يا ابنتي المسكين! سوف أموت بعد ست ساعات! وسوف أكون شيئا قذرا يلقي به على مناضد مدرجات كلية الطب! وسوف يشرح الرأس في جهة والجذع في جهة أخرى، ثم يلقي بما تبقى مني في صندوق بمقبرة "كلامار".. هذا هو يا ابنتي ما سيفعله بأبيك هؤلاء الرجال الذين لا يكرهني أحد منهم، والذين يرثون لحالي جميعا، والذين يستطيعون جميعا انقاذي. إنهم سيقتلونني في الحال، فهل تفهمين هذا يا "ماري"؟ سيقتلونني بكل برود، وفي حفل رسمي لمصلحة المجتمع! آه! يا إلهي العظيم!

مسكينة أنت يا صغيرتي! إن والدك الذي كان يحبك حبا لا مزيد عليه، والدك الذي كان يقبل رقبتك الصغيرة المعطرة، ولا تكف يده عن مداعبة خصلات شعرك الحريري، والذي كان يأخذ وجهك الجميل المستدير في يده، وكان يطيب له أن تقفزي على ركبتيه، والذي كان يجعلك في المساء تضمين يديك لتصلي لله!

من ذا الذي سيفعل لك كل هذا يا "ماري" بعد الآن؟ من ذا الذي سيحبك؟ إن كافة الأطفال في سنك سيكون لهم آباء إلا أنت يا ماري. كيف تفقدين يا ابنتي عيد رأس السنة، والهدايا واللعب الجميلة والحلوى والقبلات؟ كيف تفقدين أيتها اليتيمة البائسة عادة الأكل والشرب؟

آه لو كان هؤلاء المحلفون قد رأوها على الأقل، ابنتي "ماري" هذه الصغيرة الجميلة! إذن لفهموا أنه يجب الا يقتل أب لطفلة عمرها ثلاثة أعوام!

وعندما تكبر ابنتي، إذ قدر لها أن تكبر، فماذا عسى أن يكون مصيرها؟ إن أباها سيصبح ذكرى من ذكريات أهل باريس! لسوف تحمر خجلا مني ومن اسمي! إنها ستكون محتقرة، ينأى عنها الناس بجنوبهم، وحقيرة وضيعة بسببي أنا، أنا الذي أحبها بكل ما في قلبي من حنان. آه يا "ماري" يا طفلتي الصغيرة المحبوبة! أحقا أنك ستخجلين مني وتشعرين نحوي بالاشمئزاز؟

أنا.. يالي من بائس! ويا للجريمة التي اقترفتها، ويا للجريمة التي أتسبب في أن يقترفها المجتمع!

آه، أصحيح حقا انني سأموت قبل نهاية هذا اليوم؟ أحقا إنني أنا هذا الرجل؟ هذا الصوت المكتوم الصادر عن الصياح الذي أسمعه في الخارج، وهذا السيل المرح من الجماهير التي تسرع على أرصفة نهر "السين"، وهؤلاء الجنود الذين يستعدون في ثكناتهم، وهذا القسيس بثيابه السوداء، وهذا الرجل الآخر ذو اليدين الحمراوين، هؤلاء جميعا هل هم من أجلي؟ من أجلي انا الذي سأموت! أنا نفسي الذي استقر هنا حيا وأتحرك وأتنفس، وأجلس أمام هذه المنضدة التي تشبه أية منضدة أخرى، ويمكن أن تكون كذلك في أي مكان آخر! أنا كذلك، هذا الشخص الذي ألمسه وأشعر به، والذي ثيابه هذه طياتها؟

* * *

آه لو كنت أعلم كذلك كيف صنعت هذه المنضدة وكيف صنع هذا المقعد، وبأية طريقة يموت المرء بهما؟ لكن هذا شئ رهيب، إني لا أعرفه. أن اسم هذا الشئ يثير الرعب في النفوس ولست أفهم على الاطلاق كيف استطعت أن اكتب هذه الكلمة وأن أنطق بها؟

إن تجمع الحروف التي تكون هذه الكلمة ومظهرها وشكلها قد خلقت جميعا لتوقظ فكرة مرعبة، وأن الطبيب المنحوس الذي اخترع هذا الشئ كان اسمه مسطورا في لوحة القدر! إنها صورة غير واضحة وكئيبة للغاية تلك التي ترتبط عندي مع هذه الكلمة المشئومة، وكل حرف من حروفها يبدو لي. كأنه جزء من تلك الآلة الرهيبة التي أظل أهدم وأبني أجزاءها الجهنمية في نفسي دون انقطاع.. إنني لا أجرؤ على السؤال عنها، غير أن من المرعب ألا أعرف ما هي، ولا كيف أتصرف وأنا واقف عليها، ويبدو لي أن بها ما يشبه الأرجوحة، وانهم يجعلون المحكوم عليه ينام على بطنه. آه! إن شعري سوف يبيض لا محالة قبل أن يسقط رأسي!

ومع ذلك فقد لمحتها ذات مرة.. كنت ذات يوم أمر في عربة إلى جوار ساحة الاعدام، وكان ذلك في نحو الساعة الحادية عشرة صباحا. وفجأة توقفت العربة عن المسير، وكان هناك جمهور غفير يحيط بالساحة، وأخرجت رأسي من نافذة العربة فرأيت جموعا حاشدة تملأ المكان وتزحف على أرصفة نهر "السين"، وكان الرجال والنساء والأطفال يقفون فوق سور النهر الحجري، ومن فوق الرءوس كان في وسع المرء أن يرى منصة حمراء

من الخشب كان يعدها ثلاثة رجال.. كان ثمة شخص محكوم عليه بالاعدام سوف ينفذ فيه الحكم في نفس اليوم الذي كانوا يعدون فيه الآلة، وأشحت بوجهي قبل أن أرى، وفي تلك اللحظة سمعت امراة كانت تقف إلى جوار العربة تقول لصبي:

– عجبا! انظر! ان السكين لا تجيد القطع وسوف "يشحمون" المجرى حالا بقطعة من الشمع.

ومن المحتمل اليوم أنهم يفعلون ذلك الآن، فقد دقت الساعة الحادية عشرة منذ لحظة، ولا شك في أنهم "يشحمون" المجرى الآن.

آه! في هذه المرة أيها التعس لن تستطيع أن تشيح بوجهك!

آه! العفو العفو!

قد يصدر عني العفو، فالملك ليس غاضبا علي. فليذهبوا إذن لإحضار محام. إلي بالمحامي، وبسرعة! إني أقبل الأشغال الشاقة عن طيب خاطر، والتجديف على السفن، أقبل الأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات أو عشرين سنة، بل مدى الحياة، وأقبل معها كي كتفي بالحديد الاحمر المحمي في النار كما يشاءون.. ولكن، ليعتقوا رقبتي فحسب!

إن المحكوم عليه بالأشغال الشاقة لا يزال يمشي، ويروح ويغدو. إنه يرى الشمس!

وجاء القسيس الواعظ.. كان أبيض الشعر، لطيف الشكل للغاية، تبدو علي ملامح وجهه علامات الطيبة والاحترام. كان في الواقع رجلا ممتازا كريما، فقد رأيته في هذا الصباح يفرغ ما في جيبه في أيدي السجناء، فلماذا لا يوجد في صوته ما يؤثر أو يدل على التأثر؟ كيف يتفق أنه لم يقل لي بعد شيئا يؤثر في تفكيري أو يمس قلبي؟

لقد كنت تائها في هذا الصباح حتى أنني لم أكد أسمع ما قاله لي، ومع ذلك فقد بدت لي كلماته عديمة النفع، وبقيت غير متأثر بها. إنها كانت تنزلق من فمه كما ينزلق هذا المطر البارد على هذا الزجاج المثلج، ومع ذلك فقد أراحني مرأى الرجل بمجرد أن عاد إلى جواري، فهو الذي لا يزال بالنسبة إلى الانسان الوحيد بين هؤلاء الرجال. لقد قلت هذا في نفسي وقد شعرت بظمأ شديد إلى سماع أية كلمة طيبة مواسية.

وكنا جالسين، هو على المقعد، وأنا على السرير، فقال لي:

– يا بني..

وأحسست في تلك اللحظة بأن كلمته هذه قد فتحت قلبي المغلق، واستمر القسيس في حديثه قائلا:

– أتؤمن بالله يا بني؟

– نعم يا أبي.

– وهل تؤمن بالكنيسة الكاثوليكية البابوية الرومانية؟

– نعم في كثير من السرور

وهنا استطرد الرجل يقول:

– يبدو عليك أنك متشكك يا بني.

ثم أخذ يتكلم فأطال الحديث، وقال كلاما كثيرا. ولما ظن أخيرا أنه قد انتهى من حديثه، نهض ونظر إلي لأول مرة منذ شرع يتكلم ثم سألني قائلا:

– حسنا؟

فأكدت له أني قد استمعت إليه، في شغف أولا، ثم في انتباه ثانيا، ثم في إخلاص ثالثا.

ثم نهضت بدوري وأنا أجيبه قائلا:

– سيدي.. أرجوك أن تدعني وحدي.

– ومتى أعود؟

– سوف أخبرك في الوقت المناسب.

فخرج الرجل عندئذ دون أن يبدو عليه أي أثر للغضب، غير أنه كان يهز رأسه كما لو كان يقول في نفسه: "إنه غير مؤمن!".

كلا.. فمهما انحدرت إلى أسفل الدرك فأنا لست كذلك، والله

شهيد على أني أؤمن به. ولكن ماذا قال لي هذا الشيخ؟ إنه لم يقل شيئا أحس به، أو ألمس حنانه علي أو يبكيني. إنه لم ينتزع من روحي شيئا ولم يخرج من قلبه شئ يصل إلى قلبي، شئ يصدر من القلب إلى القلب، بل على العكس، لقد حدثني عن أشياء أراها غامضة سطحية من الممكن أن تنطبق على كل شئ وعلى كل انسان، عن أشياء هي أدنى إلى البلاغة منها إلى التعمق، وسطحية في حين أن الحاجة كانت ماسة إلى البساطة. كان حديثه ضربا من الوعظ الوجداني والتمجيد الديني، تتخلله من آن لآخر عبارة لاتينية، أو نص للقديس "أوجستان" أو للقديس "جريجوار" لست أدري أيهما! ثم إنه كان يبدو عليه أنه يعيد تلاوة درس قد تلاه من قبل عشرين مرة، أو أنه يراجع موضوعا يستخلصه من ذاكرته لكثرة معرفته به، فلا تعبير في نظرة عينيه، ولا حرارة في نبرات صوته، ولا حركة معبرة من يديه.

وكيف يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك؟ أو ليس هذا القسيس هو الواعظ الرسمي للسجن؟ إن عمله ينحصر في أن يواسي ويعظ، وهو يعيش من عمله هذا. إن السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة، ومرضى السجن، هم الذين يتبعونه، وهو الذي يجعلهم يعترفون، وهو الذي يساعدهم، لأن هذه هي وظيفته التي يؤديها. لقد هرم هذا الرجل وهو يرافق الآخرين إلى الموت وألف منذ زمن بعيد ما تقشعر له الابدان، إن شعره الأبيض لم يعد يقف فوق رأسه، فالليمان والمشنقة

شيئان يراهما في كل يوم حتى أصبح لا يتأثر كثيرا لمرآهما وقد تكون لديه كراسة يخصص صفحة منها للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، وأخرى للمحكوم عليهم بالاعدام. إنهم يخطرونه في الليلة السابقة بأنه سيكون لديه شخص ليواسيه في وقت كذا، فيسألهم من أي نوع هو: أشغال شاقة أم "اعدام"؟.. ثم يراجع الرجل صفحته ويحضر درسه، وهكذا يحدث أن هؤلاء الذين يذهبون إلى ليمان "طولون" وأولئك الذين يذهبون إلى ساحة الاعدام، يصبحون جميعا لديه أفكارا مطروقة، كما يصبح هو عندهم فكرة مطروقة كذلك.

آه! فليذهبوا إذن وليحضروا لي بدلا من ذلك واعظا شابا أو قسيسا شيخا كيفما اتفق من أول "أبرشية" تصادفهم، ولينتزعوه من جلسته وهو إلى جوار ناره يقرأ كتابه وليقولوا له: "هناك رجل سيموت حالا، ويجب أن تكون أنت من تواسيه، يجب أن تكون إلى جانبه حين يوثقون يديه، وحين يقصون شعره وأن تركب معه في العربة ومعك صليبك كي تحجب عنه منظر الجلاد، وأن تشاطره وعورة الطريق حتى يبلغ ساحة الاعدام، وأن تجتاز معه هذا الجمع الغفير المروع شارب الدماء، وأن تقبله وهو يرقى إلى المقصلة، وأن تظل واقفا هناك حتى يفصل رأسه عن جسده، ويصبح رأسه هنا وجسمه هناك.

فليحضروا إلي اذن هذا القسيس وهو يرتجف، وجسده بأسره يرتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، وليلقوا بي بين ذراعيه وعلى ركبتيه. لسوف

يبكي عندئذ ولسوف أبكي معه، سوف يكون فصيحا بليغا، فأشعر بالمواساة وأسكب ما في قلبي في قلبه، وسوف يملك على زمام نفسي وتنتقل إلي قوة ايمانه.

ولكن.. من هو هذا الشيخ الطيب، أين هو مني وأين انا منه؟ لأنني انسان شقي، وظل من الظلال التي طالما رأى كثيرا منها، وواحد آخر يضيفه إلى عدد أولئك الذين نفذ فيهم حكم الاعدام. وقد أكون مخطئا بإبعاده عني على هذا النحو، فهو الرجل الصانح وأنا الرجل الطالح، ولكن الذنب ليس ذنبي للأسف! وإنما مرد ذلك أني انسان محكوم عليه بالموت. فالآراء كثيرا ما تفسد كل شئ وتجعله يذبل!

لقد أحضروا إلي طعاما منذ لحظة. لقد حسبوا أنني لابد أن أكون في حاجة إليه. ها هي ذي مائدة رقيقة شهية، عليها دجاجة فيما يبدو، وألوان أخرى كذلك.. حسنا! لقد حاولت أن آكل، ولكن الطعام سقط من فمي عند أول لقمة تناولتها، وقد بدا لي كريها مر المذاق!

حضر منذ لحظة رجل قبعته فوق رأسه، فألقى علي نظرة عابرة، ثم نصب سلما من الخشب وأخذ يقيس أحجار الجدار من أسفل إلى أعلى، وهو يتكلم بصوت مرتفع للغاية، ليقول تارة: "إنه لكذلك" وليصيح تارة أخرى: "كلا، ليس كذلك".

وسألت الحارس عمن يكون هذا الرجل، فقال لي أنه يبدو أنه يعمل كمساعد مهندس في السجن.

ومن ناحية أخرى، فقد ثار حب الاستطلاع في نفس هذا الموظف من ناحيتي، فقد تبادل كلمات، كلها تلميح مع حامل مفاتيح السجن الذي كان في رفقته، ثم أمعن النظر في لحظة، وهو يهز راسه في غير مبالاة، واستأنف حديثه وهو يتابع قياس أبعاد الجدار بنفس اللهجة المرتفعة التي كان يتكلم بها من قبل.

وما إن فرغ الرجل من عمله حتى اقترب مني وهو يقول في صوت جهوري: "يا صديقي العزيز.. سوف يكون هذا السجن بعد ستة أشهر أفضل من هذا بكثير".

وكانت الحركة التي أتى بها وهو يقول ذلك كأنها تقول: "ولكنك للأسف لن تستمتع بهذا التحسين!".

كان الرجل يبتسم تقريبا، فخيل إلى وقتئذ أنني كنت أرى اللحظة التي كان يوشك فيها أن يسخر مني برفق كما يمزح الناس مع عروس شابة في ليلة الزفاف، وقد تكفل الجندي الذي كان في حراستي بالرد عليه، وكان حارسا عجوزا قد أبيض شعر رأسه وهو في حراسة السجناء، فقال له: "سيدي لا يرفع المرء صوته هكذا في حجرة ميت!"

ورحل المهندس، أما أنا فبقيت هناك كحجر من الاحجار التي كان يقيس أبعادها!

وحدث لي بعد ذلك شئ يبعث علي السخرية، فقد جاءوا ليغيروا حارسي العجوز، وأنا أناني وغير معترف بالجميل، فلم أصافحه حتى بلمسة

يد، وحل مكانه آخر وكان رجلا ذابل الجبين، تشبه عيناه أعين البقر ووجهه جامد لا تعبير فيه، ولم أكن من ناحيتي قد أعرت ذلك أي انتباه، فقد كنت جالسا إلى المنضدة وظهري إلى الباب، وأنا أحاول أن أرطب بيدي جبيني الملتهب، وكانت خواطري تثور في نفسي، وأحسست فجأة بضربة خفيفة على كتفي أدرت لها رأسي. كان هذا جندي الحراسة الجديد الذي كنت معه وحدي.

وهذه – تقريبا – هي الطريقة التي وجه بها الحديث إلي، قال لي الرجل:

– هل أنت طيب القلب أيها المجرم؟

– كلا!

وبدا لي أن سرعة إجابتي قد صدمته، ومع ذلك فقد عاود حديثه قائلا في تردد:

– إن المرء لا يكون مؤذيا لمجرد الرغبة في الايذاء.

– ولم لا؟ إذا لم يكن لديك سوى هذا الكلام فأتركني وشأني. ما الذي ترمي إليه؟

– عفوا أيها المجرم، لدي كلمتان، كلمتان فحسب، أريد أن أقولهما لك: إذا كنت تستطيع أن تسعد رجلا مسكينا دون أن يكلفك ذلك شيئا فهل تفعل؟

فأجبته قائلا وأنا أهز كتفي:

– هل أنت قادم يا هذا من مستشفى المجانين؟ إنك تختار إناء غريبا لتستخرج منه السعادة! أنا؟.. أنا أسعد شخصا؟

فخفض الجندي من صوته وبدا عليه كأنه يخفي في نفسه سرا – وإن كان ذلك لا يتفق مع وجهه الذي ينطق بالغباء – وهو يقول لي:

– نعم أيها المجرم.. نعم، السعادة، والثروة! إن هذا كله سوف يأتيني منك. هذا هو ما في الأمر. أنا جندي مسكين، والخدمة ثقيلة، وأجري ضئيل، ولي جواد يخربني! غير أنني أقامر في أوراق "اليانصيب" كي أوازن حياتي. إن المرء تلزمه صناعة، ولا ينقصني حتى الآن كي أربح في "اليانصيب"، إلا أن أحصل على الأرقام الجيدة، وأنا دائم البحث عنها في كل مكان. إني أبحث عن أرقام مضمونة ولكني أقع دائما على أرقام تجاورها، أقامر على الرقم ٧٦ مثلا فيكسب الرقم ٧٧، ومهما اصطنعت من فراسة فإني لا أهتدي إلى الرقم الرابح.. أصبر قليلا من فضلك فقد أوشكت على الانتهاء – ولكن هذه فرصة طيبة بالنسبة إلي، إذ يبدو لي – عفوا أيها المجرم – إنك ستعدم اليوم، ومن المؤكد أن الاموات الذين تزهق أرواحهم على هذا النحو يرون أرقام "اليانصيب" الرابحة مقدما. عدني أن تعود مساء غد – ولن يضيرك هذا في شئ – لتعطيني ثلاثة أرقام، ثلاثة أرقام رابحة أليس كذلك؟ إني لا أخاف الأشباح فكن مطمئنا، وإليك عنواني: "ثكنات بوبانكور، سلم رقم ١، عنبر رقم ٢٦ في نهاية

الدهليز" وسوف تتعرف علي في غير عناء أليس كذلك؟ ويمكنك أن تحضر حتى في هذا المساء ان كان هذا يروق لك.

وكنت شديد الرغبة في احتقار هذا الأحمق بعدم الرد عليه، لولا أن ثار في نفسي أمل جنوني، ففي مثل الحالة البائسة التي كنت فيها، يعتقد المرء أحيانا أن في وسعه أن يحطم سلسلة حديدية بشعرة.

فقلت له وأنا أمثل بقدر ما يستطيع أن يمثل انسان يوشك أن يموت:

– اصغ إلي.. إنني أستطيع حقا أن أجعلك أغنى من الملك، أن أجعلك تربح الملايين، ولكن بشرط.

ففتح الرجل عينين يطل منهما الغباء وهو يقول:

– ما هو؟ ما هو؟ سوف أفعل كل شئ لإرضائك أيها المجرم!

– أعدك بأربعة أرقام لا بثلاثة. أستبدل ملابسك بملابسي.

فصاح الحارس وهو يفك الأزرار الأولى في زيه العسكري:

– لو كان الأمر مقصورا على ذلك!

وكنت قد نهضت من مقعدي وأنا أرقب كل حركة من حركاته وقلبي ينتفض في صدري، وكنت أتخيل الأبواب وهي تفتح أمام زيي كحارس من حراس السجن، وأتخيل الميدان، والشارع، ثم دار القضاء من وراء ظهري!

ولكن الرجل التفت إلي وهو يقول في تردد: "آه يا هذا! لا شك في

أنك لا تقصد بهذا طبعا إلا أن تخرج من هنا"؟

فأدركت عندئذ أن كل شئ قد ضاع، وبذلت مع ذلك جهدا أخيرا لا طائل تحته، جهدا غير منطقي على الاطلاق! فقلت له:

– إنني أقصد هذا حقا، ولكن ثراءك مضمون..

فقاطعني الجندي قائلا:

– آه! حسنا! كلا، كلا.. عجيبا! فلكي تربح أرقامي يجب أن تكون أنت ميتا!

فجلست ثانية في صمت وقد تملكني يأس لم أشعر بمثله قط من قبل!

أيام صباي

أغمضت عيني، ووضعت يدي فوقهما، محاولا أن أنسى الحاضر في الماضي، وبينما أنا أحلم، عادت إلي ذكريات طفولتي وشبابي، واحدة أثر أخرى، عادت هادئة وحلوة ضاحكة كأنها جزر من الزهر على حافة هذه الهوة السحيقة من الأفكار السوداء الغامضة التي كانت تغلي في رأسي.

هأنذا أرى نفسي مرة أخرى طفلا وتلميذا ضاحكا نضرا، العب وأجري وأصيح مع اخوتي في هذا الممر الكبير الأخضر بتلك الحديقة غير المنسقة، حيث انقضت سنوات حياتي الأولى، والتي كانت في الأصل حديقة للراهبات، تطل عليها تلك القبة الرمادية الضخمة، قبة كنيسة "لوفال دوجراس".

وهأنذا هناك أيضا بعد ذلك بأربع سنوات وكنت فتى يافعا عطوفا على الدوام. وكانت هناك فتاة شابة في الحديقة المنعزلة. كانت أسبانية صغيرة تدعي "بيبا" ذات عينين كبيرتين، وشعر أسود طويل، وبشرة سمراء ذهبية، وشفتين قرمزيتين وخدين ورديين. وكانت هذه الأندلسية الجميلة لا تتجاوز الأربعة عشر ربيعا.

وكانت أمانا قد قالتا لنا أن نذهب لنجري معا: فجئنا للتنزه. لقد قيل لنا أن نلعب وها نحن أولا نتبادل الحديث، ونحن من سن واحدة، ولكننا لسنا من جنس واحد.. ومع ذلك فقد كنا، منذ عام واحد مضى فحسب، نلعب ونتصارع معا، وكنت أتشاجر مع "بيبا" على أجمل تفاحة في شجرة التفاح، وكنت أضربها من أجل عش العصافير. انها كانت تبكي فكنت أقول لها: "حسنا فعلت!" وكنا نذهب لنشكو معا إلى أمينا اللتين كانتا تقولان بصوت مرتفع أننا كنا مخطئين، ثم تقولان في صوت خفيض أنا كنا على حق.

ها هي ذي الآن تتكئ على ذراعي وقد غمرني الفخر وتملكني الانفعال. إننا نسير الهوينى، ونتحدث بصوت خافت. ها هي ذي تترك منديلها يسقط فألتقطه لها. إن أيدينا ترتعش عندما تتلامس. وهي تتحدث إلي عن الطيور الصغيرة، وعن النجم الذي نراه هناك، وعن غروب الشمس المحمرة من وراء الشجر، أو عن صديقاتها في مدرسة الراهبات، أو عن ثوبها وشرائطها الحريرية. إننا كنا نتكلم في أمور بريئة ولكننا كنا نحمر

منها خجلا.. إن الفتاة الصغيرة قد أصبحت شابة يافعة.

وفي ذاك المساء بالذات – وكان مساء ليلة من ليالي الصيف – كنا جالسين تحت أشجار الكستناء في نهاية الحديقة، وبعد إحدى فترات الصمت الطويلة التي كانت تتخلل نزهاتنا، قالت لي "بيبا": "هيا بنا نجر!".

إنني لازلت أراها وهي ترتدي ثيابها السوداء حدادا على وفاة جدتها. لقد مرت بخاطرها حينئذ فكرة من أفكار الطفولة ثم عادت "بيبا" لتصبح "بيبتا" مرة ثانية.

وقالت لي: "هيا بنا نستبق!".

وأخذت تعدو أمامي بقامتها الرشيقة، وخصرها الدقيق، وقدميها الصغيرتين اللتين كانتا ترفعان ثوبها إلى منتصف ساقيها. وكنت أتبعها وهي تهرب أمامي، وكان الهواء الذي يحدثه عدوها يرفع أحيانا قميصها الأسواد فيتيح لي أن أرى ظهرها الأسمر النضر.. وكنت لا أستطيع مغالبة نفسي، فلحقت بها بجانب البئر القديمة المتهدمة، وأمسكت بها من حزامها بحق انتصاري عليها في السباق، ثم أجلستها على العشب فلم تقاومني، وامتثلت وهي تلهث وتضحك، بينما كنت جادا لا أكف عن النظر إلى عينيها الحالمتين من خلال أهدابها الطويلة السوداء.

وقالت لي "بيبا": "اجلس هنا! فالدنيا لا تزال نهارا.. اجلس ولنقرا شيئا، أليس معك كتاب!".

وكان معي يومئذ الجزء الثاني من كتاب "رحلات سبالازاني"، ففتحته في صفحة ما واقتربت منها فأسندت كتفها إلى كتفي، وأخذنا نقرأ نفس الصفحة بصوت منخفض، كل واحد منا من ناحيته، فكانت هي تضطر إلى انتظاري قبل أن أقلب الصفحة، فقد كانت روحها أكثر استيعابا من روحي وكانت تقول لي وأنا لم أكد انتهي من قراءة السطور الأولى من الصفحة: "هل انتهيت؟".

وكان رأسانا في خلال ذلك يلتقيان، وكان شعرنا يتشابك، وأنفاسنا تمتزج رويدا رويدا وفجأة تلاقت شفاهنا!

ولما أردنا أن نتابع قراءتنا كانت النجوم تملأ السماء.. وقالت "بيبا" لوالدتها عندما عادت: "آه! يا أماه! آه يا أماه! آه لو كنت تعلمين كم جرينا!".

أما أنا فلذت بالصمت.

وقالت لي والدتي: "إنك لا تقول شيئا يا بني! يبدو أنك حزين!

ولكني لم أكن حزينا!.. إن الجنة كانت في قلبي! لسوف أذكر هذه الأمسية مدى حياتي!

طول حياتي!!

* * *

دقت الساعة منذ لحظة تعلن الواحدة. ولست أدري أية ساعة تلك

التي دقت فلم أعد أسمع جيدا دقات هذه الساعة ويبدو لي أن في أذني صوتا كصوت الأرغن.. إنها كانت أفكاري الأخيرة تدوي في أذني..

في هذه اللحظة الحرجة بينما كنت أتأمل ذكرياتي، وجدت جريمتي فيها بشعة للغاية للمرة الثانية، ولكني أتمنى كذلك أن أندم أكثر من ذي قبل. لقد كنت أكثر ندما مني الآن قبل أن يصدر الحكم علي، ومنذ ذلك اليوم، يبدو لي أن ليس هناك مكان في نفسي إلا لأفكار الموت. ومع ذلك، فإني راغب حقا في أن أندم كثيرا.

وعندما حلمت دقيقة ووصلت في حلمي إلى ضربة المقصلة التي يجب أن تضع حدا لحياتي بعد ساعات، اجتاحتني رجفة كأن هذا شئ جديد! يا لطفولتي الجميلة! ويا لشبابي الجميل! إنها يبدوان لي الآن كقماش موشى بالذهب وأطرافه ملطخة بالدماء، فبين ذلك العهد وبين الحاضر نهر من أندم، دم الرجل الآخر.. ودمي أنا.

إذا قرأ الناس يوما قصتي هذه بعد كل تلك السنين من البراءة والسعادة، فلن يصدقوا هذا العام البغيض الذي بدأ بجريمة وانتهى بالمقصلة.. إنه سيبدو شيئا يشوه بهجة هذه الحياة.. ومع ذلك، فيا أيتها القوانين البائسة، ويا أيها الرجال التعساء: إني لم أكن شريرا ولا قاسيا!

آه! أأموت بعد بضع ساعات، وأنا أفكر في أنني كنت في مثل هذا اليوم حرا طليقا، وطاهرا نقيا منذ عام واحد؟ وفي أنني كنت أتنزه نزهات الخريف، وأجول كما يروق لي وأسير تحت أوراق الخمائل؟

في هذه اللحظة بالذات، هناك إلى جواري، في هذه المنازل التي تحيط بدار القضاء وبساحة الاعدام، كما هو الحال كذلك في كل مكان في باريس، يوجد أناس يروحون ويغدون ويتبادلون الحديث ويضحكون، ويطالعون الصحف ويفكرون في أعمالهم، وتجار يبيعون وفتيات شابات يعددن ثوب السهرة لحفل الليلة الراقص، وأمهات يلعبن مع أطفالهن!!

أذكر أني ذهبت يوما وأنا صبي لرؤية أبراج كنيسة "نوتردام" وكنت قد أصبحت شاردا بسبب صعود السلم الحلزوني المظلم، وعبور الدهليز الدقيق الذي يربط بين البرجين، وباريس تحت قدمي، عندما دخلت القفص المصنوع من الحجر والخشب حيث يتدلى الناقوس الكبير ومعه الجلة، وهو يزن ألفا من الكيلوجرامات.

ولقد مشيت وأنا أرتجف فوق الألواح الخشبية غير المرتبطة تماما ببعضها، وأنظر من بعيد إلى هذا الناقوس المعروف جيدا لأهل باريس وأطفالها، وألاحظ في رعب أن المنحنيات المغطاة بالقرميد التي تحيط بالناقوس كانت في مستوى قدمي، وكنت أرى في أثناء ذلك، وكأني طير طائر في الهواء، المارين بميدان كنيسة "نوتردام" وكأنهم النمل!

وفجأة، دوى الناقوس الضخم فهز صوته الراعد الهواء، وجعل البرج الثقيل يرتج، وكانت "الأرضية" الخشبية تقفز فوق العروق، وكدت أقع على ظهري من جراء هذا الصوت، فترنحت بعض الشئ وأوشكت أن أنزلق عن الإطار المنحدر المصنوع من القرميد، فنمت فوق الألواح الخشبية من فرط

الرعب وأنا أحضنها بذراعي في عنف ولا أقوى على التنفس مع هذا الرنين الضخم الذي يجلجل في أذني، وتحت عيني هذه الهوة السحيقة، وهذا الميدان العميق حيث كان يتقابل عدد كبير من المارة الهادئين الآمنين الذين كنت أحسدهم في تلك اللحظة على ما هم فيه.

حسنا! إنه ليبدو لي الآن أنني لازلت في برج الناقوس الكبير بكنيسة "نوتردام" ذلك أني أسمع في هذه الساعة نفس الدوي وأحس بنفس الذهول، فهناك شئ ما شبيه بدقات الأجراس يهز أعماق مخي، ولم أعد المح من حولي هذه الحياة الممهدة الهادئة التي تركتها وراء ظهري، والتي لا يزال الآخرون يدرجون في طريقها، لم أعد ألمحها إلا من بعيد، من بعيد جدا، ومن خلال هوة سحيقة.

* * *

إن مبنى المحافظة مقبض كئيب!

فسقفه الخشن المدبب، وبرجه الصغير ذو الشكل الغريب، ومزولته الكبيرة البيضاء، وطبقاته ذوات الأعمدة الصغيرة، ونوافذه التي تعد بالمئات، ودرجات سلالمه التي تآكلت من الخطوات، وقوسا البناء اللذان يحفان به من يمين ومن شمال، كل هذا يجعله جاثما هناك، كساحة الاعدام، مظلما كئيبا تنهش الشيخوخة وجهه، وأسود جدا إلى حد أنه يبدو قاتما في الشمس!

وفي الأيام التي يتم فيها تنفيذ أحكام الاعدام، تقذف أبوابه جميعا

رجال الشرطة ويطل كل من في نوافذه على الشخص المحكوم عليه بالموت. وفي المساء تظل مزولته التي بينت لي الساعة مضيئة في واجهته المظلمة.

الساعة الآن الواحدة والربع.

وهذا هو ما أشعر به الآن: إني أقاسي صداعا شديدا، وبرودة مروعة في كليتي، وجبيني ملتهب، وكلما وقفت أو انحنيت بدا لي أن هناك سائلا يجري في مخي فيجعله يضطرب في غلاف جمجمتي.

إنني أحس برجفة محمومة، ومن وقت إلى آخر يسقط القلم من يدي كما لو كانت تهزني صدمات كهربائية.

إن عيني ملتهبتان كما لو كنت غارقا في دخان وأشعر بألم هائل في مرفقي.

لسوف أشفى بعد انقضاء ساعتين وخمس وأربعين دقيقة!

إنهم يقولون إن المقصلة لا شئ، وإن المرء لا يتألم، وإنها نهاية حلوة، وإن الموت بهذه الطريقة يكون مختصرا بسيطا.

آه! إذن ما هذا الاحتضار الذي دام ستة أسابيع؟ وما هذه الحشرجة التي دامت يوما بأكمله؟ وما هي إذن آلام هذا اليوم الذي لن يعوض والذي يمر بسرعة بالغة وفي بطء بالغ كذلك؟ وما هو إذن هذا السلم من العذاب الذي ينتهي إلى المشنقة؟

وليس هذا كله ألما في الظاهر!

أو ليست هي نفس التقلصات العنيفة حين يفرغ الدم قطرة قطرة، وحين ينطفئ الذكاء فكرة بعد فكرة؟

ثم إنهم يقولون ان المرء لا يتألم من المقصلة، فهل هم واثقون من ذلك؟ ومن ذا الذي قال لهم هذا الكلام؟ وهل حدث قط أن رأسا مقطوعا وقف يقطر دما على حافة السلة ليصبح في الجمهور قائلا: "إن هذا لا يحدث ألما!".

هل حدث أن أمواتا ماتوا بهذه الطريقة، عادوا ليقدموا لهم الشكل وليقولوا لهم: "إن اختراعكم هذا اختراع عظيم، وعليكم ان تستمروا في استعماله! إنه آلة جيدة!".

وهل هو "روبسبيير" الذي قال هذا أو "لويس السادس عشر؟".

كلا! لا شئ من هذا! إن الأمر ينتهي في أقل من دقيقة، بل في أقل من ثانية! فهل وضعوا أنفسهم قط، ولو في الخيال، موضع الشخص الذي يكون هناك عندما تهوى السكين الثقيلة فتعض اللحم وتقطع العروق، وتكسر مفاصل الرقبة وعظامها؟

ولكن ماذا؟.. ماذا تقولون؟ تقولون إنها نصف ساعة! وإن الألم يختصر!. فيا للهول!

من الغريب حقا إني لا أكف عن التفكير في الملك!

ومهما فعلت ومهما هززت رأسي، فإن هناك صوتا يتردد في أذني

ويقول لي على الدوام: "هناك في نفس هذه المدينة، في نفس هذه الساعة، ولكن في قصر آخر، رجل لديه كذلك حراس على كل أبوابه، وهو شخص فريد في نوعه بين أفراد الشعب من أمثالك مع هذا الفارق الوحيد، وهو أنه مرتفع بقدر ما أنت منخفض. إن حياته كلها دقيقة فدقيقة ليست إلا مجدا وعظمة وسرورا ومتعة، وكل شئ من حوله عبارة عن حب واحترام وتبجيل. إن أكثر الأصوات ارتفاعا لتنخفض حينما تتحدث إليه وتنحني أمامه أكثر الجباه تيها وفخرا، ولا تقع عيناه إلا على الحرير والذهب، وهو يرؤس في هذه اللحظة اجتماعا من اجتماعات الوزراء فيقره الجميع على رأيه، أو أنه يفكر في رحلة الصيد التي سيقوم بها غدا، أو في حفل هذه الليلة الراقص، وهو على يقين من أنه سيتم في الساعة المحددة له، ويترك للآخرين أمر تدبير ملذاته.

حسنا! إن هذا الرجل مثلك من لحم وعظم! – ولكي تنهار المقصلة الرهيبة في نفس اللحظة ويعاد إليك كل شئ: حياتك، وحريتك، وثروتك، وأسرتك، يكفي منه أن يكتب بهذا القلم الحروف السبعة التي يتكون منها اسمه في ذيل قصاصة من الورق، أو تقابل عربته الملكية العربة التي ستحملك إلى ساحة الاعدام! وهو رجل طيب، وقد لا يكون راغبا في أكثر من هذا العمل الطيب، ولكن هذا لن يحدث!

* * *

حسنا إذن! لنكن شجعانا مع الموت. ولنقابل هذه الفكرة الرهيبة

بشجاعة، ولنواجهها وجها لوجه. لنسأل ما هو الموت؟ ولنعرف ماذا يريده منا؟ ولنقلب هذه الفكرة على جميع وجوهها، ولنقرأ الغيب، ولننظر مقدما في القبر.

إنه ليبدو لي أنني عندما ستغمض عيناي، سأرى ضوءا باهرا وهوة سحيقة من النور تعدو خلالها روحي إلى مالانهاية، ويبدو لي أن السماء سوف تكون مضيئة من تلقاء نفسها، وأن النجوم ستكون فيها كأنها نقط سوداوات! نعم، يبدو لي أن النجوم ستبدو كأنها نقط سوداوات على قماش ذهبي اللون، بدلا من أن تكون كما تتراءى لا عين الاحياء، قصاصات من ذهب على قطيفة سوداء أو قد تكون – ويا لشقائي – هوة مروعة، جدرانها مبطنة بالظلمات، أهوى فيها بلا توقف وأنا أرى أشباحا تتحرم في الظلام!

أو أنني قد أجد نفسي بعد أن أستيقظ من ضربة المقصلة فوق مساحة ما مسطحة رطبة، وأنا أزحف في الظلام، وأدور على نفسي مثل الرأس الذي يتدحرج، ويخيل إلى أنه ستكون هناك ريح صرير عاتية تدفعني بلا هوادة، فأصطدم هنا وهناك برءوس أخرى تتدحرج، وأنني سأمر أحيانا في طريقي بمستنقعات وجداول وأنهار بها سائل فاتر مجهول، وإن كل شئ سيكون حالك السواد، وإن عيني حينما تتجهان في دورانهما إلى أعلى فلن تريا إلا سماء مظلمة تضغط عليهما طبقاتها الكثيفة، والا قبابا، ضخمة من دخان أسود كالظلمات، ترى في النهاية على بعد سحيق، وإن عيني سوف

تريان كذلك شررا صغيرا أحمر يتطاير في الظلام، لا يلبث عندما يقترب منهما أن يتحول إلى طيور من نار، وستظل الحال على هذا النحو إلى الأبد.

وقد يحدث أحيانا في مواقيت معينة أن يجتمع أولئك الذين ماتوا في ساحة الاعدام خلال ليالي الشتاء السوداوات في الميدان الذي هو خاص بهم، ولسوف يكون هذا الجمع جمهورا شاحبا داميا، ولن أتخلف عن أن أكون بينهم، ولن يكون هناك قمر وسوف نتحدث في أصوات خافتة. إن مبنى المحافظة سوف يكون هناك بواجهته العتيقة، وسقفه الممزق، ومزولته التي كانت لا ترحم أحدا. وسوف تكون في الميدان مقصلة من جهنم يعدم بها أحد الشياطين جلادا، وسوف يتم ذلك في الساعة الرابعة صباحا، وسوف نتجمهر بدورنا من حوله!

نعم، قد يكون الأمر كذلك. ولكن إذا عاد هؤلاء الموتى فعلى أية صورة يعودون؟ وما الذي يحتفظون به من أجسامهم الناقصة المشوهة؟ وماذا سوف يختارون؟ هل سيكون شبح كل منهم رأسا أم جذعا؟

وا أسفاه! ترى ماذا يفعل الموت بأرواحنا؟ وأي شكل يدعه لها؟ ما الذي يأخذه منها أو يعطيها أياه؟ وأين يضع الموت الروح؟ وهل يجعل لها في بعض الأحيان عينين بشريتين كي تنظرا إلى الأرض وتبكيا؟

آه! إلي بقسيس! أريد قسيسا يعرف هذا، ويحدثني عنه! أريد قسيسا وصليبا! قبله!

رباه! إنه دائما نفس القسيس!

لقد رجوته أن يتركني فأنام، وألقيت بنفسي على السرير، وكان دمي كله قد صعد في الواقع إلى رأسي، فحملني هذا على النوم. كانت هذه نومتي الأخيرة من هذا النوع!

ورأيت في المنام أن الوقت كان ليلا، وخيل إلي أني كنت في مكتبي مع اثنين من أصدقائي أو ثلاثة، لست أدري من هم على وجه التحقيق، وكانت زوجتي نائمة مع طفلتها في الغرفة المجاورة، وكنا نتحدث أنا وأصدقائي في صوت خفيف، وكان ما يدور بيننا من الحديث يبعث الخوف في أنفسنا.

وفجأة، خيل إلي أني أسمع صوتا ما في الغرف الأخريات من المسكن! كان صوتا خافتا غريبا غير واضح!

وكان أصدقائي قد سمعوا هذا الصوت كما سمعته، فأنصتنا جميعا: كان كأنه صوت قفل يفتح خلسة، أو مزلاج يسحب في صوت ضئيل.

وكان ثمة شئ يثلج أطرافنا.. وهو أننا كنا خائفين. وحسبنا أن لصوصا قد تسللوا إلى مسكني في هذه الساعة المتقدمة جدا من الليل، فقررنا أن نذهب لنرى ما هنالك. فنهضت من فوق مقعدي، وأخذت الشمعة في يدي، وتبعني أصدقائي واحدا في أثر الآخر، واجتزنا غرفة النوم المجاورة، وكانت زوجتي نائمة مع ابنتها، ثم وصلنا إلى غرفة الجلوس، ولكن لم يكن هناك شئ.. كانت الصور مثبتة في اطاراتها الذهبية من فوق الستائر

الحمراوات، غير أنه خيل إلى أن الباب الذي بين غرفة الجلوس وبين غرفة المائدة ليس في مكانه المألوف.

ودخلنا غرفة المائدة وطوفنا بها باحثين فاحصين، وكنت أنا الذي يسير في الطليعة. كان باب السلم مغلقا تماما وكذلك النوافذ. وعندما بلغت المدفأة رأيت أن صوان الملابس كان مفتوحا، وان بابه كان مشدودا إلى زاوية الجدار، كما لو كان المقصود هو اخفاء ذلك. فأدهشني هذا، واعتقدنا أن هناك شخصا ما وراء هذا الباب.

فأمسكت هذا الباب بيدي كي أعيد إغلاقه ولكنه قاومني. فعجبت وجذبته بقوة هي أكبر من سابقتها، وفجأة استجاب الباب، واكتشفنا خلفه امرأة عجوزا قصيرة القامة متدلية الذراعين ومغمضة العينين، قد وقفت بلا حراك كما لو كانت ملتصقة بركن الجدار!

كان ذلك منظرا مفزعا يقف له شعر رأسي عندما أفكر فيه!

وقلت سائلا هذه العجوز: "ماذا تفعلين هنا؟"

فلم تحر جوابا، وعدت أسألها قائلا: "من أنت؟"

فلم تجبني كذلك ولم تبد حراكا وظلت مقفلة العينين.

وعندئذ قال لي أصدقائي: "إنها دون شك شريكة هؤلاء الذين تسللوا إلى بيتك لأغراض شريرة، ولابد أنهم قد فروا حين سمعونا نقترب منهم، ولم تتمكن هي من الهرب فاختبأت هنا!".

فسألت المرأة من جديد، ولكنها ظلت لا تتكلم ولا تتحرك ولا تنظر! ودفعها أحدنا فوقعت على أرض الغرفة، وقعت كتلة واحدة، كأنها قطعة من الخشب أو شئ جامد لا حياة فيه!

وهززناها من قدميها، ثم أوقفها اثنان من بيننا، وجعلاها تستند من جديد إلى الجدار، غير أنها لم تبد ما يدل على أنها على قيد الحياة! فصرخنا في أذنها ولكنها بقيت صامتة كأنها صماء!

ونفذ صبرنا مع ذلك، وكان رعبنا ممزوجا بالغضب، فقال لي واحد من أصدقائي "ضع الشمعة تحت ذقنها!".

فوضعت فتيلة الشمعة الموقدة تحت ذقنها، وعندئذ فتحت المرأة عينا واحدة، فتحتها قليلا، فكانت عينا خاوية لا تنظر، مخيفة لا حياة فيها!

فأبعدت الشمعة عنها وقلت لها: "آه! أخيرا! هلا أجبتني أيتها الساحرة العجوز؟ من تكونين؟".

وانطبقت عين المرأة بحركة تلقائية فقال الآخرون: إنها تبالغ كثيرا في هذه المرة! أعد الشمعة مرة أخرى إذ يجب أن نحل عقدة لسانها!

فأعدت الشمعة تحت ذقن العجوز، ففتحت عينيها في بطء ونظرت إلينا جميعا واحدا بعد الآخر، ثم أحنت فجأة ونفخت في الشمعة بنفس بارد، وأحسست في نفس اللحظة بثلاث أسنان حادة تنغرس في يدي في

الظلام، واستيقظت عندئذ من نومي ملعورا وقد غمر جسمي عرق بارد. وكان القسيس الطيب جالسا عند أسفل سريري يتلو بعض الصلوات، فسألته قائلا:

– هل نمت طويلا؟

فأجابني بقوله:

–نمت ساعة يا بني. لقد أحضروا لك ابنتك وهي هنا تنتظرك في الحجرة المجاورة، ولم أشأ أن يوقظك أحد.

فضحكت قائلا:

– آه! ابنتي؟ ليأتوني بابنتي!

ماري ابنتي

إنها نضرة وردية اللون ذات عينين كبيرتين، إنها لجميلة حقا!

لقد ألبسوها ثوبا يلائمها تماما.

أخذتها ورفعتها بين ذراعي، ثم أجلستها على ركبتي وقبلت شعرها

وساءلت نفسي: ترى لماذا لم تحضر معها أمها؟ الآن أمها مريضة، وكذلك جدتها؟ حسنا!

كانت تنظر إلي في دهشة بادية، بينما أخذت أداعبها، وأحضنها، وألتهمها بقبلاتي وهي تتركني أفعل كل ذلك. غير أنها كانت بين لحظة وأخرى تلقي نظرة حائرة على خادمتها، التي كانت تبكي في ركن الغرفة، واستطعت أخيرا أن أتكلم فقلت لها:

– "ماري!" يا صغيرتي "ماري!"

وكنت في تلك اللحظة أضمها في عنف فوق صدري المنتفخ بالدموع الملتهبة، فصاحت صيحة صغيرة وقالت:

– آه! إنك تؤلمني يا سيدي!

"سيدي؟!" ها هو ذا عام تقريبا قد انقضى لم تربي خلاله هذه الطفلة المسكين! لقد نسيتني، نسيت وجهي وكلامي ولهجتي، ثم.. من ذا الذي يستطيع أن يعرفني وأنا بهذه اللحية، وفي هذه الثياب، وفي مثل هذا الشحوب؟ آه! أهكذا محيت سريعا من هذه الذاكرة، وهي الذاكرة

الوحيدة التي كنت أود أن أعيش فيها! آه! أبمثل هذه السرعة لم أعد أبا؟ أنا الذي قضى علي ألا أسمع قط بعد الآن هذه الكلمة: كلمة "بابا"! هذه الكلمة التي هي من لغة الاطفال، والتي تبلغ من العذوبة حدا لا يمكن أن تبقى معه في ذاكرة الرجال!

ومع ذلك، فقد كنت لا أتمنى ألا أن أسمع هذه الكلمة من هذا الفم مرة أخرى، مرة واحدة فحسب.. هذا هو كل ما كنت أريده في مقابل الأربعين سنة التي سيأخذونها من عمري!

قلت لها وأنا آخذ بيديها الصغيرتين في يدي:

– اصغي إلي يا "ماري".. ألا تعرفينني؟

فنظرت إلي بعينيها الجمليتين ثم أجابت قائلة:

– آه! حسنا.. إنني لا أعرفك!

فعدت أكرر القول:

– انظري إلي جيدا.. كيف لا تعرفين من أنا؟

فقالت لي:

– بلى، بلى.. إنك سيد.

وا اسفاه! ها هو ذا امرؤ لا يحب من أعماق قلبه إلا مخلوقا واحدا في هذا العالم، يحبه بكل جوارحه، ويجده أمامه، وينظر إليه، وبراه ويحدثه

ويرد عليه.. ولكن هذا المخلوق لا يعرفه، إنني لا أريد عزاء إلا منها، فهي الإنسان الوحيد الذي لا يعرف أني في حاجة إلى العزاء، لأني أوشك أن أموت!

واستأنفت حديثي معها قائلا:

– ألك أب يا "ماري؟"

– نعم يا سيدي.

– حسنا، وأين هو؟

فرفعت إلى عينين واسعتين تطل منهما الدهشة وقالت:

– ألا تعلم إذن؟ لقد مات يا سيدي!

وما إن قالت هذا حتى تصلبت ذراعاي على ماري لهول ما سمعته فصرخت، وكادت تسقط مني على الأرض! بينما كنت أقول لها:

– مات! أتعرفين يا "ماري" ما معنى أنه مات؟

فأجابتني قائلة:

– نعم يا سيدي.. إنه في الأرض وفي السماء

ثم استطردت تقول من تلقاء نفسها:

– إني أصلي من أجله صباحا ومساء وأنا على ركبتي ماما.

فطبعت قبلة على جبينها وقلت لها:

– قولي لي صلاتك يا "ماري".

– لا أستطيع يا سيدي. إن الصلاة شئ لا يقال بالنهار.تعال عندنا في البيت هذا المساء وأنا أقولها لك.

وكان هذا حسبي لكنني قاطعتها قائلا:

– "ماري" أنا والدك!

– آه!

فعدت أقول:

– أتحبين أن أكون والدك؟

فأشاحت الطفلة عني بوجهها ثم قالت:

– كلا.. لقد كان والدي أجمل منك كثيرا!

فأخذت أغرقها بقبلاتي ودموعي، فحاولت أن تفلت من بين ذراعي، وهي تصيح: "إنك تؤلمني بلحيتك!".

وعندئذ أجلستها ثانية على ركبتي وأنا أحرسها بعيني ثم سألتها قائلا:

– أتعرفين القراءة يا "ماري"؟

– نعم، أعرفها جيدا، إن والدتي تجعلني أقرأ حروفا اكتبها بنفسي

فقلت لها وأنا أريها ورقة كانت تمسك بها مجعدة في احدى يديها الصغيرتين:

– أريني كيف.. هيا اقرئي قليلا!

فهزت رأسها الجميل وقالت:

– حسنا! لست أعرف إلا قراءة الحكايات

فعدت أقول لها:

– استمري في المحاولة.. أريني.. اقرئي.

فنشرت الورقة وأخذت تتهجى مشيرة بأصابعها:

– ح.. ك.. حك.. م.. "حكم".

فانتزعت الورقة من بين يديها، فقد كان ما تقرؤه هو نص الحكم الصادر علي بالاعدام، وكانت خادمتها قد اشترت هذه الورقة بنصف مليم، أما أنا فقد كلفتني غاليا!

ليست لدي كلمات أستطيع بها أن أعبر عما كنت أقاسيه في تلك اللحظة! كان عنفي قد روعها وأخافها وكانت تبكي تقريبا. وفجأة قالت لي: "أعد إلي ورقتي إذن لألعب بها! عجبا!".

فأرجعت الطفلة إلى الخادمة وأنا أقول:

– خذيها من هنا!

ثم تهالكت على مقعدي مكتئبا يائسا شارد اللب! يجب عليهم أن يحضروا الآن فلم أعد أتمسك بأي شئ اذ انقطع آخر وتر من أوتار قلبي،

وصرت مهيئا لما سيفعلونه بي على الفور!

إن القسيس رجل طيب القلب، وكذلك الجندي الحارس، وأحسب أن كل واحد منهما قد ذرف دمعة حينما قلت للخادمة: "خذيها من هنا!".

لقد قضي الأمر الآن، فيجب علي أن أتصلب في أعماق نفسي، وأن أفكر بثبات في الجلاد، وفي العربة، والجنود، والجمهور المحتشد على الجسر، وفي المحتشدين على رصيف نهر السين، وفي الذين يقفون أمام النوافذ، وفيما سوف يعد خصيصا من أجلي في تلك الساحة، ساحة الاعدام المظلمة التي يمكن أن ترصف بما هوى من الرءوس. أحسب أنه لا تزال أمامي ساعة كي آلف كل ذلك.

* * *

إن كل هذا الشعب سوف يضحك ويصفق. وبين كل هؤلاء الرجال الأحرار الذين لا يعرفهم الجلادون، والذين يسرعون في مرح لمشاهدة تنفيذ حكم الاعدام، بين كل هذه الرءوس التي ستغطي الميدان، هناك أكثر من رأس كتب عليه أن يتبع رأسي إن عاجلا أو آجلا إلى السلة الحمراء، وهناك أكثر من شخص من هؤلاء الذين يأتون من أجلي سوف يأتون في يوم من الأيام من أجل أنفسهم!

فبالنسبة لهؤلاء الأشخاص المنحوسين، هناك نقطة معينة في ساحة الاعدام، هي عبارة عن مكان مشئوم ومركز جاذبية وفخ منصوب، وهم يحومون حوله ويحومون إلى أن يتردوا فيه!

ابنتي الصغيرة "ماري!" – لقد أعادوها لتلعب.. إنها تنظر إلى الجمهور من خلال نافذة العربة التي تقلها ولم تعد تفكر في هذا "السيد!".

قد يتاح لي كذلك بعض الوقت لأكتب لها بعض الصفحات حتى تقرأها في يوم من الأيام، وتبكي بعد خمسة عشر عاما بدلا من اليوم.

نعم، يجب أن تعرف " ماري " قصتي مني وأن تعرف السبب في أن الاسم الذي أتركه لها يقطر دما!

قصتي

كلمة من الناشر:

لم نجد إلى الآن الورقات الخاصة بهذا الفصل من الكتاب. وقد يكون المحكوم عليه بالاعدام لم يجد متسعا من الوقت لكتابتها كما ستبينه الصفحات التالية، وكان الوقت قد أزف عندما خطرت له هذه الفكرة.

إلى ساحة الاعدام

من غرفة حكمدار المحافظة! إنني هنا إذن! لقد تمت الرحلة البغيضة وها هي ذي ساحة الاعدام، وها هو ذا الشعب الرهيب يضج بالصراخ تحت نافذتي وينتظرني وهو يضحك!

وقد حاولت جهدي أن أتشجع أو أستجمع قواي ولكني كنت أحس دائما بأن قلبي يخونني، وقد خانني أكثر، وكاد يكف عن الخفقان عندما رأيت هاتين الذراعين الحمراوين، وفي نهايتهما هذا المثلث الأسود،

تطالعني من فوق الرءوس وقد نصبت كلها لي بين مصباحين على رصيف النهر، فطلبت أن أعترف اعترافا أخيرا، فأحضروني إلى هنا، وذهبوا لاستدعاء أحد وكلاء النائب العام، وهأنذا انتظره وسوف أكسب بهذا بعض الوقت.

وهذا ما حدث:

دقت الساعة ثلاث دقات، عندما جاءوا ليخطروني بأن الوقت قد حان، فارتجفت كما لو كنت أفكر في شئ آخر منذ ست ساعات أو منذ ستة أسابيع، بل منذ ستة أشهر، لقد كان لهذا في نفسي وقع سيئ لم أكن أنتظره.

وساقوني أمامهم فاجتزت الدهاليز ونزلت السلالم ثم دفعوني بين نافذتين صغيرتين بالطابق الأرضي في غرفة ضيقة مظلمة سقفها به قباب، ويصل إليها ضوء خافت من نور يوم معتم مطير. كان الضباب كثيفا، وكان ثمة مقعد في وسط الغرفة وأمروني بالجلوس فجلست.

وكان هناك، عدا القسيس والحراس، رجال يقفون إلى جوار باب القاعة وبطول الجدران، وكان هناك كذلك ثلاثة رجال آخرين، كان أولهم – وهم أطولهم قامة وأكبرهم سنا – بدينا ذا وجه أحمر، ويرتدي "ردنجوتا" وقبعة غير منتظمة الشكل لها زوايا ثلاث. لقد كان هو!

نعم، كان هو الجلاد بعينه، خادم المقصلة، وكان الرجلان الآخران خادمين له شخصيا!

وما إن جلست حتى اقترب مني الرجلان الآخران من الخلف وكأنهما قطان، وفجأة، أحسست ببرودة الصلب تسري في رأسي وصلصلة المقصات تدوي في أذني، وأخذ شعري الذي كانوا يقصونه كيفما اتفق، يتساقط خصلا على كتفي، فكان الرجل البدين ذو البقعة المثلثة الأركان ينفضه في رفق بيده الضخمة.. ومن حولي كان يدور الحديث في صوت هامس.. وكانت تترامى إلى أذني من الخارج جلبة عظيمة كأنها رعد يتدفق مع الهواء، فحسبت في أول الأمر أنها صادرة من النهر، ولكني ما لبثت أن سمعت ضحكات عالية، فأدركت أن تلك الجلبة كانت منبعثة من الجماهير.. وكان هناك شاب يقف إلى جوار النافذة وقد أخذ يكتب بالقلم فوق حافظة أوراقه، فسأل أحد الحراس قائلا:

– ما هذا الذي يفعلونه الآن بالمحكوم عليه؟

فأجابه الحارس بقوله:

– هذه زينة المحكوم عليه بالموت!

ففهمت عندئذ أن هذا سيظهر غدا في الصحف.

وفجأة، خلع لي أحد خادمي الجلاد سترتي، وأخذ الآخر يدي اللتين كانتا تتدليان إلى جانبي وجذبهما وراء ظهري ثم أحسست بالحبل وهو يلتف حول معصمي في بطء. وفي نفس اللحظة كان الخادم الأول يفك ربطة عنقي، لكن قميصي "الباتسنا" وهو الخرقة الوحيدة التي تبقت لي مما كنت أرتديه فيما مضى، جعله يتردد لحظة ثم شرع الرجل في قص "ياقته"،

فارتجفت لهذه الحيطة الرهيبة حينما مس المقص الصلب رقبتي، وارتعد مرفقاي في عنف ظاهر وند عني أنين مكتوم ارتعشت له يدا "صبي" الجلاد.

وقال لي الرجل:

– سامحني يا سيدي! هل آلمتك؟

إن هؤلاء الجلادين ذوو شعور رقيق للغاية.

وكان صراخ الجماهير يتزايد في الخارج.

وعرض علي الرجل البدين ذو الوجه الأحمر أن أشم منديلا مشبعا بالخل، فقلت له بأعلى صوت أستطيعه: "شكرا، هذا لا جدوى منه فأنا أشعر بأني في حالة جيدة".

وعندئذ انحنى أحدهم، وقيد قدمي بحبل رفيع رقيق كان لا يتيح لي أن أخطو إلا خطوات ضيقة للغاية، ثم ربطوا هذا الحبل الاخير بحبل يدي، ثم ألقى الرجل البدين بالسترة على كتفي وربط كميها معا من أسفل ذقني. كان كل ما كان ينبغي أن يتم هنا قد انتهى.

وفي تلك اللحظة، اقترب مني القسيس بصليبه وقال لي: "هيا يا بني".

فأمسك بي خادما الجلاد من تحت إبطي فنهضت ومشيت كانت خطواتي خائرة منهارة، كما لو كانت كل ساق من ساقي لها ركبتان!

وفتح الباب الخارجي على مصراعيه في تلك اللحظة، فاندفع نحوي

فجأة وأنا في الظلام، صياح الجماهير الغاضب مختلطا بالهواء البارد والضوء الأبيض. ورأيت فجأة –ودفعة واحدة من خلال المطر وعبر النافذة الصغيرة المعتمة– آلافا مؤلفة من الرءوس رءوس الشعب الذي تكدس بعضه إلى جانب البعض في غير نظام، وهو يصيح من فوق سلم المحافظة الكبير. وكان هناك إلى اليمين عند عتبة الباب تماما صف من فرسان البوليس على ظهور جيادهم التي لم يكن يبدو لي منها سوى صدورها وأقدامها الأمامية من خلال الباب المنخفض، وكانت هناك في مواجهتي سرية من الجنود في زي الميدان، كما ظهرت إلى اليسار مؤخرة عربة (كارو) كان يرتكز عليها سلم غليظ خشن! فكان هذا كله لوحة كئيبة تتمشى تماما مع باب السجن!

وكنت قد استطعت أن أحتفظ بشجاعتي حتى هذه اللحظة الرهيبة، فخطوت ثلاث خطوات إلى الامام، وما كدت أبدو عند باب القاعة، حتى علا صياح الجماهير قائلا: "هذا هو! هذا هو! ها هو ذا يخرج أخيرا!" وكان أقربهم إلى مكاني يصفقون، ومهما أحب الشعب ملكا فلن يحتفي به مثل هذه الحفاوة!

وكانت العربة عربة (كارو) عادية يجرها جواد هزيل وكان سائقها يرتدي حلة زرقاء بها رسوم حمراء اللون شبيهة بثياب تجار الخضر حول سجن "بيستر".

وصعد الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الأركان إلى العربة أولا، وكان

الصبية المتعلقون بالسور الحديدي يصيحون لمرآه قائلين: " أهلا وسهلا بالسيد شمشون "ثم تبعه إلى العربة أحد خادميه، فعاد الصبية يصيحون من جديد: "مرحى يا ماردي!" وجلس الرجلان على مقعد العربة الأمامي، ثم حان دوري، فصعدت إلى العربة في مظهر ثابت بعض الشئ. وفي تلك اللحظة قالت امرأة كانت تقف إلى جوار الجنود: "إنه على ما يرام!".

ومنحنى هذا الثناء المروع شيئا من الشجاعة، وجاء القسيس ليجلس إلى جواري وكانوا قد أجلسوني على المقعد الخلفي وظهري إلى جواد العربة، فارتجف بدني لهذه اللفتة الأخيرة! إنهم يبدون انسانية في مثل هذه الأمور.

وأردت أن أنظر حولي. كان أمامي جنود ومن خلفي جنود، ثم الجماهير.. نعم، جماهير ثم جماهير ثم جماهير: لقد كان هناك بحر من الرءوس يغمر الميدان!

وكانت كوكبة من فرسان البوليس في انتظاري عند باب سور المحافظة الحديدي. وأصدر الضابط أوامره، فتحركت العربة مع الموكب كما لو كان صياح الجماهير قد دفعها إلى الأمام.. واجتزنا الباب الحديدي، وما كادت العربة تنعطف في اتجاه قنطرة "أو شانح" حتى انفجرت الضوضاء في الميدان، من الأرض إلى أسطح المنازل، ورددتها القناطر وأرصفة نهر السين" في دوى كأنه زلزال يهز الأرض هزا في غير هوادة ولا رحمة!

وفي تلك اللحظة، انضم البوليس، الذي كان ينتظرني، في قوة

الحراسة.. وكانت آلاف الأفواه تصيح معا، تماما كما يحدث عند مرور الملك "اخلعوا قبعاتكم! اخلعوا قبعاتكم!".

فضحكت أنا كذلك ضحكة كئيبة وقلت للقسيس: "هم القبعات.. وأنا الرأس".

وأخذ الموكب يسير خطوة خطوة. وكان رصيف الزهور تنبعث منه روائح زكية، وكان اليوم يوم السوق، فتركت بائعات الزهور زهورهن من أجلي أنا.

وهناك في مواجهتنا، قبل البرج المربع الجاثم في ركن دار المحافظة بقليل، حانات كان الطابق الأرضي منها يعج بالمتفرجين الذين ينعمون بأماكنهم الجميلة، وكان أكثرهم من النساء! لابد أن يكون هذا اليوم يوما طيبا بالنسبة لأصحاب الحانات! فقد كانوا يؤجرون المناضد والمقاعد والمنصات والعربات (الكارو)، وكان كل شئ مزدحما بالمتفرجين، وكان بائعو الدماء البشرية يصيحون بملء أفواههم قائلين: "من ذا الذي يريد مكانا؟".

وتملكني السخط على هذا الشعب، وووددت لو أصرخ في الناس قائلا: "من منكم يريد مكاني؟".

ومع ذلك فقد أخذت العربة تتقدم، وفي كل خطوة كانت تخطوها كان الجمهور ينفض من ورائها وكنت أرى بعيني الشاردتين أفواجا من الناس، وهي تسارع إلى التجمع في مواضع أخرى أبعد إلى الأمام في الطريق

الذي يمضي فيه موكبي، وحينما بدأنا نمر فوق قنطرة "أوشانج" ألقيت بطريق الصدفة نظرة ذات اليمين إلى الوراء، فاستقرت عيناي عند رصيف نهر السين من الضفة المقابلة على برج أسود منعزل قائم من وراء أسطح المنازل، وكان هذا البرج مزدانا بالنقوش، وكنت أرى في قمته تمثالين لوحشين من الحجر في جلسة جانبية. ولست أدري ماذا دفعني إلى سؤال القسيس عن أمر هذا البرج.

فأجابني الجلاد بقوله: "إنه القديس جاك لابوشيري".

ولست أدري كيف كان لا يفوتني شئ مما كان يدور من حولي رغم الضباب ورغم المطر الدقيق الأبيض الذي كان يملأ الهواء وكأنه خيوط نسيج العنكبوت، وكانت كل واحدة من هذه التفاصيل تضيف إلى نفسي عذابا فوق عذاب. ولست أجد من الكلمات ما أستطيع به أن اعبر عما أشعر به من انفعالات.

وفي نحو منتصف قنطرة "أوشانج" العريضة جدا والمزدحمة للغاية، والتي كنا نسير فوقها في صعوبة بالغة، تملكني رعب عظيم وخشيت أن أغيب عن الوعي. يا له من غرور أخير! فحرصت عندئذ على أن أعمل على تشريد ذهني حتى أصير كالأعمى الأصم، فلا أرى شيئا ولا أسمع شيئا عدا القسيس الذي كنت أسمع كلماته في جهد جهيد تتخللها ضجة الشعب.

فتناولت الصليب وقبلته ثم قلت: "رحماك يا إلهي!" وحاولت أن أفني

نفسي في هذه الفكرة، ولكن كل مطب تضطرب فيه العربة الصلبة كان يهزني هزا عنيفا، ثم أحسست فجأة ببرودة شديدة، إذ كان المطر قد نفذ من ثيابي وغمر جلد رأسي من خلال شعري الذي قصوه قصيرا.

وسألني القسيس قائلا:

– أترتجف من البرد يا بني؟

فأجبته بقولي:

– نعم.

وكنت للأسف لا أرتجف من البرد وحده!

وعند ناصية القنطرة أبدي بعض النساء عطفهن علي لأني شاب حديث السن. ثم مضينا قدما على طول الرصيف المشئوم، فبدأت لا أرى شيئا ولا أسمع شيئا! آه من كل هذه الأصوات وكل تلك الرءوس التي تطل من النوافذ والأبواب وتحتشد أمام الحوانيت وفوق أعمدة النور، آه من كل هؤلاء المتفرجين النهمين القساة، هذا الجمهور الذي يعرفني كله ولا أعرف شخصا واحدا منه، هذا الطريق المرصوف والمسور بالوجوه البشرية!! إني كنت ثملا مذهولا متبلد الذهن! إن كل هذه الأنظار التي تتطلع إليك شئ لا يمكن احتماله!

لقد كنت أترنح إذن فوق المقعد ولم أعد ألقي بالا إلى شئ، حتى ولا إلى القسيس أو الصليب. وفي غمرة الضجيج الذي كان يحيط بي، صرت

لا أميز صيحات الشفقة من صيحات السرور، أو أفرق بين الأنات والضحكات، ولا بين الأصوات والصخب، فكل ذلك كان ضجيجا يدوي في رأسي كما يدوي الصدى في آلة من نحاس!

وكانت عيناي تقرآن لافتات الحوانيت بطريقة آلية، وتملكني مرة فضول عجيب لأن أدير رأسي لأنظر إلى أي مكان كنت أسير. كان هذا تحديا أخيرا من العقل، غير أن جسمي لم يستجب لهذا ولبث عنقي مشلولا كأنه مات مقدما!

لقد لمحت فحسب، عن يساري من الجانب بعيدا عن النهر، برج كنيسة "نوتردام" الذي إذا نظر إليه من هذا الموضع، فإنه يحجب البرج الآخر، هذا البرج الذي كان العلم مرفوعا عليه، وكان به جمع غفير كان المفروض أنه يرى موكبي في وضوح، وواصلت العربة المسير فأخذت تتقدم وتتقدم والحوانيت تمر، واللافتات تتتابع مكتوبة أو مرسومة أو مطلية بالذهب وكان الجمهور يضحك ويضرب الوحل بالاقدام، أما أنا فكنت أترك العنان لنفسي كما يترك الناس عنان أنفسهم للأحلام.

وفجأة، انقطعت سلسلة الحوانيت التي كانت تشغل عيني عند ناصية ميدان وأصبح صياح الجماهير أشد قوة وعمقا وانتشارا، وصار أكثر مرحا كذلك، وتوقفت العربة عن المسير بغتة فكدت أنكفئ على وجهي فوق "أرضيتها" الخشبية، فسندني القسيس وهو يتمتم قائلا: "تشجع يا بني!".

وجاءوا عندئذ بسلم عند مؤخرة العربة فقدم إلى القسيس ذراعه، فنزلت

وخطوت خطوة واحدة ثم التفت إلى ما ورائي لأخطو بعدها خطوة أخرى، ولكني لم أستطع، إذ كنت قد رأيت شيئا رهيبا بين عمودين من أعمدة النور فوق الرصيف..

آه! لقد كانت هي الحقيقة!

فتوقفت كما لو كنت قد ترنحت من أثر الصدمة، ثم صحت قائلا في صوت مخنوق: "لدي اعتراف أخير أريد أن أفضي به!".

ولكنهم صعدوا بي إلى هذا المكان، وطلبت أن يتركوني كي أدون إرادتي الأخيرة، ففكوا وثاق يدي، ولكن الحبل هنا إلى جواري على أهبة الاستعداد، وبقيته ملفوفة على قدمي!

الرجاء الأخير

لقد حضر منذ لحظة أحد القضاة أو مأمور أو رجل من رجال القضاء لست أدري أيهم. فطلبت إليه العفو عني وأنا أضم يدي وأزحف على ركبتي. فأجابني الرجل قائلا وهو يبتسم ابتسامة مشئومة: "هل هذا هو كل ما تريد أن تقوله لي؟".

فعدت أكرر قولي: "العفو عني! العفو عني! أو خمس دقائق فحسب.. على سبيل الرحمة!".

من يدري؟ فقد يصل أمر العفو! ومن الشناعة حقا أن أموت هكذا وأنا في مثل هذه السن! وكثيرا ما رأينا أمر العفو يأتي في اللحظة الأخيرة وعمن يعفون يا سيدي إذا هم لم يعفوا عني؟

يالهذا الجلاد البغيض! لقد دنا من القاضي ليقول له أن تنفيذ الحكم يجب أن يتم في ساعة محددة، وأن هذه الساعة تقترب، وأنه كان مسئولا، وليقول له فوق هذا أن السماء كانت تمطر، وأن ذلك كان خليقا بأن يجعل المقصلة تصدأ!

فصحت قائلا: "آه! دقيقة أخرى على سبيل الرحمة! دقيقة واحدة أنتظر فيها وصول العفو! وإلا فإني سوف أدافع عن نفسي! سوف أعض!".

فانصرف القاضي والجلاد، وبقيت وحدي.. وحدي مع جنديين.

أوه! يا للشعب الرهيب بصياحه الذي يشبه عواء الضباع! من يدري ما إذا كنت أفلت منه؟ من يعلم ما إذا كنت أعتق؟ أو أن يصدر عفو عني؟ من المحال ألا يصدر العفو عني!

آه! يا للتعساء! يبدو لي أنهم يصعدون السلم!

الساعة الآن الرابعة!

مهزلة بمناسبة مأساة

الشخصيات

- مدام دي بلانفال.
- الفارس.
- ارجالست.
- شاعر حزين.
- فيلسوف.
- سيد بدين.
- سيد نحيل.
- خادم.

المكان: في الصالون

شاعر حزين يقرأ هذه الأبيات من شعره:

وفي اليوم التالي، كانت خطوات تعبر الغابة وكان هناك كلب ينبح ويهيم على طول مجرى النهر.

ولما حضرت الفتاة وهي تبكي وعادت لتجلس وقلبها مملوء

بالهواجس على البرج القديم جدا في القصر العتيق سمعت "ايزور" الحزينة انين الأمواج ولكنها لم تعد تسمع الربابة بعد ذلك ربابة القصصي (الشاعر) اللطيف!

كل المستعمين – "برافو"!.. لطيف!.. مدهش! (ويصفقون في نفس الوقت).

مدام دي بلانفال – هناك في نهاية هذه القصيدة شئ غامض لا يمكن تعريفه، شئ يسيل الدمع من العيون.

الشاعر الحزين – (في تواضع): ان الكارثة مقنعة؟

الفارس – (وهو يهز رأسه): إن كلمتي ربابة وعازف ربابة: رومانتيكيتان!

الشاعر الحزين – نعم يا سيدي، ولكنها رومانتيكية معقولة، رومانتيكية بمعنى الكلمة – ماذا تريد إذن؟ يجب علينا أن نتساهل بعض الشئ.

– نتساهل.. نتساهل! إننا بهذه الطريقة نفقد الذوق الفني.. إنني لأعطي بامتنان كل الاشعار الرومانتيكية في مقابل هذا الرباعي:

في بلاد "باند" و"سبتير".

أخطر "جانتيي برنار".

بأن فن الحب يجب في يوم السبت   أن يتعشى عند فن الاعجاب

هذا هو الشعر بمعنى الكلمة! فن الحب الذي يتناول عشاءه يوم السبت عند فن الاعجاب! حسنا، حسنا! ولكنه اليوم عبارة عن ربابة وعازف ربابة. لم يعد ثمة شعر به تورية واستعارة.. آه! لو كنت شاعرا لكتبت أشعارا مملوءة بالاستعارات.. ولكني لست شاعرا.. أنا.

الشاعر الحزين – ومع ذلك، فالاشعار الحزينة والعاطفية..

الفارس – إننا نريد يا سيدي أشعارا بها استعارة.. (ثم بصوت هامس إلى مدام دي بلانفال): ثم أنه استعمل كلما غير فرنسية!

شخص ما – إننا نريد يا سيدي أشعارا بها استعارة.. (ثم بصوت هامس إلى مدام دي بلانفال): ثم أنه استعمل كلما غير فرنسية!

شخص ما – (مخاطبا الشاعر الحزين): لدي ملاحظه يا سيدي.. إنك تقول: "القصر العتيق"، فلماذا لا تقول "القصر القوطي؟".

الشاعر الحزين – إن كلمة "قوطي" لا تقال في الأشعار.

شخص ما – آه! هذا أمر مختلف.

الشاعر الحزين – (متابعا حديثه): افهمني تماما يا سيد.. يجب أن نحدد أهدافنا، وأنا لست من هؤلاء الذين يريدون اشاعة الفوضى والاضطراب في الشعر الفرنسي والعودة به إلى عصر مدرسة "رونسار" ومدرسة "بريبوف" إنني رومانتيكي ولكني معتدل، والأمر عندي تماما كالانفعالات، فأنا أريدها حلوة رقيقة، وحزينة حالمة، ولكني لا أريد أبدا

دما وبشاعة. يجب تغطية الكوارث، وإني لأعرف أن هناك أناسا مجانين يشتط خيالهم ويهرف، وهم.. عجبا! هل قرأتن سيداتي الرواية الجديدة؟

السيدات – أية رواية؟

الشاعر الحزين – الرواية التي عنوانها: "آخر يوم"..

سيد بدين – كفى يا سيدي! فأنا أعرف ما تريد أن تقول.. ان العنوان وحده يرهق أعصابي!

مدام دي لانفال – وأنا كذلك.. إنه كتاب فظيع، وهو عندي هنا

السيدات – أرينا اياه.. أرينا اياه!

(يمر الكتاب من يد إلى أخرى)

شخص ما – (يقرأ): آخر يوم في حياة شخص..

السيد البدين – رحماك يا سيدتي!

مدام دي بلانفال – حقا انه كتاب شنيع بسبب الكابوس، ويجلب لقارئه المرض.

سيدة – (بصوت منخفض): يجب أن اقرأ هذا الكتاب.

السيد البدين – من واجبنا أن نعترف بأن الأخلاق تتدهور من يوم إلى يوم. يا الهي! يالها من فكرة بشعة!.. أوليس تحليل كل الآلام البدنية، وكافة أنواع العذاب النفسي التي يقاسيها رجل محكوم عليه بالاعدام يوم

تنفيذ الحكم فيه، واحدة بعد أخرى، والتغلغل فيها، والتنقيب عن جذورها وملابساتها.. أو ليس هذا كله شيئا شنيعا؟ أتفهمن سيداتي أنه قد وجد بالفعل كاتب تبني هذه الفكرة وأن ثمة جمهورا يقرأ لهذا الكاتب؟

الفارس – هذا في الواقع عمل ينطوي على أكبر قدر من الوقاحة!

مدام دي بلانفال – ومن هو مؤلفه؟

السيد البدين – لم يكن اسم المؤلف مكتوبا على الطبعة الأولى.

الشاعر الحزين – إنه هو بعينه الذي سبق له أن كتب وراويتين أخريين.. أقسم بشرفي أني نسيت عنوانيهما! إن الرواية الأولى تبدأ في المشرحة وتنتهي في ساحة الاعدام، وفي كل فصل من فصولها تجدون غولا يأكل طفلا.

السيد البدين – وهل قرأت هذا يا سيدي؟

الشاعر الحزين – نعم يا سيدي، وحوادث هذه الرواية تقع في "أيسلاندة"..

السيد البدين – في أيسلاندة؟ إن هذا لشئ مخيف!

الشاعر الحزين – لقد كتب عدا هذا أشعارا غنائية وألوانا عدة من القصائد لست أعرفها، ولكن فيها الوحوش ذات الأجساد الزرقاء!

الفارس – (ضاحكا): يا الهي! لابد أن يكون هذا بيتا عنيفا من الشعر.

الشاعر الحزين – لقد نشر كذلك دراما مسرحية – انهم يسمون هذا دراما – ولقد جاء بها هذا البيت الجميل من الشعر:

غدا، الخامس والعشرون من يونيو سنة ألف وستمائة وسبع وخمسين.

شخص ما – يا له من بيت من الشعر!

الشاعر الحزين – ان هذا يمكننا كتابته بالأرقام.. انظرن سيداتي:

غدا ٢٥ يونيو ١٦٥٧.

(يضحك ويضحك معه الآخرون).

الفارس – لقد أصبح الشعر الآن شيئا "خاصا".

السيد البدين – آه! إن هذا الرجل لا يعرف كيف يقرض الشعر فما هو اسمه؟

الشاعر الحزين – إنه اسم يصعب حفظه والنطق به.. وبه المقطع: "جو".. شئ يشبه "فيزيجو" على ما أذكر، وعلى كل حال فان فيه شيئا من "الاوستروجو".

مدام دي بلانفال – إنه رجل بغيض!

السيد البدين – بل رجل شنيع!

سيدة شابة – إن شخصا يعرفه قال لي..

السيد البدين – أتعرفين شخصا يعرفه؟

السيدة الشابة – نعم، وهو يقول رجل حلو الطباع، بسيط، يضحك وهو في عزلته، ويقضي أيامه في اللعب مع أبنائه.

الشاعر الحزين – ويقضي ياليه يحلم بمؤلفاته المظلمة. هذا شئ فريد! إليكم بيتا من الشعر نظمته بطريقة طبيعية للغاية:

"ولياليه يقضيها في الحلم في مؤلفاته المظلمة"

وهو بيت مصقول حسن، ولا تنقصه الا قافية بين آخر.

آه!.. ها هي ذي:

"في الليل الحالك"

السيد البدين – كنت تقولين إذن يا سيدتي أن المؤلف المذكور له أبناء صغار.. ان هذا مستحيل يا سيدتي، عندما يكتب المرء مثل هذا الكتاب!.. أوه! مثل هذه الرواية المفزعة..

شخص ما – ولكن، لأي هدف كتب هذه الرواية؟

الشاعر الحزين – إني لي أن أعرف؟

فيلسوف – يبدو أنه كتبها بقصد الاسهام في الغاء عقوبة الاعدام.

السيد البدين – إني أقول لكم أن هذه الرواية شئ بشع!

الفارس – آه! إني أرى ذلك.. انها اذن مبارزة مع الجلاد.

الشاعر الحزين – الواقع أنه يحقد على المقصلة كل الحقد.

سيد نحيل – استطيع أن أتصور ذلك، فهي خطب إذن؟ – كلا على الاطلاق أن هناك صفحتين على الأكثر عن نص عقوبة الاعدام، أما الباقي كله فهو عبارة عن مشاعر.

الفيلسوف – هذا هو وجه الخطأ، فالموضوع كان جديرا بالتأمل. ان "الدراما" أو الرواية لا تبرهن على شئ، ثم اني قرأت الكتاب، وهو كتاب ردئ.

الشاعر الحزين – بل وكريه! هل هذا فن؟ إنه قد تخطى الحدود وحطم الزجاج! وهناك كذلك هذا المجرم.. آه لو كنت أعرفه! ولكن.. كلا! ماذا جنت يداه؟ إننا لا نعرف عن ذلك شيئا، وليس لأحد الحق في أن يثير اهتمامي بانسان لا أعرفه.

السيد البدين – ليس من حق الكاتب أن يثير في القارئ آلاما بدنية. إنني عندما أشاهد مسرحيات محزنة يحدث فيها قتل.. آه! حسنا.. فذلك لا يؤثر في نفسي، ولكن هذه الرواية يقف لها شعر الرأس، أنها تجعل جسمك يرتجف بأسره، وتجعلك تحلم أحلاما فظيعة. لقد لازمت الفراش يومين بعد أن قراتها.

الفيلسوف – زد على ذلك أنه كتاب بارد ومتكلف.

الشاعر – أوه! كتاب!.. كتاب!

الفيلسوف – نعم، وكما كنت تقول منذ لحظة يا سيدي، انه كتاب لا يقوم على الفن الحقيقي، الفن بمعنى الكلمة! إنني لا أعني بأمر افتراضي

محض، ولست أرى في الرواية شخصية تتقمص شخصيتي. وفوق هذا، فأسلوبه ليس بسيطا ولا واضحا، إنه ملئ بالكلمات العنيقة، أفليس هذا هو ما كنت تقوله؟

الشاعر – بلا شك، بلا شك! يجب ألا تكون هناك شخصيات.

الفيلسوف – إن الشخص المحكوم عليه لا يثير الاهتمام.

الشاعر – وكيف يمكن أن يثير اهتمام القارئ؟ إنه ارتكب جرما ولا يشعر بندم! لو أنني كنت المؤلف لفعلت عكس ذلك تماما، لكنت قصصت قصة شخص المحكوم عليه، فقلت أنه مولود من أبوين شريفين وتلقي تربية طيبة. وبعد هذا يأتي الحب، والغيرة، وجريمة لا تكون جريمة.. ثم يأتي دور الندم. نعم، كثير من الندم. ولكن القوانين التي وضعها الإنسان لا ترحم. فيجب اذن أن يموت. وهنا، كنت أتحدث عن موضوعي الذي أعالجه: عقوبة الاعدام.

مدام دي بلانفال – آه! آه!

الفيلسوف – عفوا! إن الكتاب كما يفهمه السيد لا يبرهن على شئ، فالخاص لا يكون حكما للعام.

الشاعر – حسنا! هناك ما هو أفضل. لماذا لم يتخير المؤلف بطلا لروايته مثلا، شخصية كشخصية مالزرب، مالزرب الفاضل؟ آخر يوم في حياته وعذابه قبل اعدامه؟ آه! إنه كان خليقا عندئذ بأن يكون منظرا جملا

نبيلا! ولكنت بكيت وارتجفت من الانفعال ورغبت في الصعود معه إلى المقصلة!

الفيلسوف – أما أنا فلا!

الفارس – ولا أنا. الواقع أن السيد "مالزرب" الذي تتحدث عنه كان ثائرا.

الفيلسوف – ان شنق "مالزرب" لا يبرهن على شئ ضد عقوبة الاعدام بوجه عام.

السيد البدين – عقوبة الاعدام! ما جدوى الاهتمام بهذا الأمر؟ وفيم تعنيكم عقوبة الاعدام؟ لابد أن يكون هذا الكاتب من وضاعة الأصل بحيث يأتي ليثير في أنفسنا بكتابه هذا كابوسا بشأن هذا الموضوع!

مدام دي بلانفال – إن الذين وضعوا القوانين لم يكونوا أطفالا.

الفيلسوف – آه! ومع ذلك، فعندما تعرض الأمور في صراحة..

السيد النحيل – آه! هذا هو ما ينقص الكتاب تماما: الحقيقة والصراحة.

ماذا تريدون أن يعرفه شاعر عن مثل هذه الأمور؟ يجب أن يكون المرء على الأقل وكيلا للنائب العام. عجبا! إني قرأت في نص ذكرته إحدى الصحف عن هذا الكتاب أن المحكوم عليه لا يقول شيئا عندما يقرون عليه نص الحكم. حسنا! أما أنا فقد رأيت شخصا محكوما عليه بالاعدام

وهو يصيح بقوة في تلك اللحظة قائلا:

"هل ترون....؟".

الفيلسوف – هل تأذن....؟

السيد النحيل – عجبا أيها السادة! إن المقصلة وساحة الاعدام ذوق فاسد، والدليل على هذا انه كتاب يفسد الذوق، ويجعل المرء عاجزا عن أن يشعر بانفعالات نقية طازجة وساذجة! متى ينهض اذن أولئك الذين يدافعون عن الأدب السليم؟ إنني أود أن أكون عضوا في الأكاديمية الفرنسية وقد يعطيني هذا الحق مرافعاتي كوكيل للنيابة. هذه هي حقيقة الأمر يا سيد "ارجاست"، فما رأيك في كتاب "آخر يوم في حياة محكوم عليه بالاعدام؟".

ارجاست – الحق يا سيدي إنني لم أقرأ هذا الكتاب ولن اقرأه. لقد كنت اتعشى بالأمس عند "مدام دي سينانج"، تحدثت الماركيزة "دي موريفال" بشأنه مع الذوق "دي ملكور". ويقال أن هناك بعض شخصيات ضد رجال القضاء، وخاصة ضد الرئيس "داليمون"، وكان الأب "دي فلوريكور" ساخطا كذلك، ويبدو أن في الكتاب فصلا يعارض فيه الذين بعض المعارضة وآخر ضد الملكية. آه لو كنت وكيلا للنائب العام!

الفارس – حسنا! وكيلا للنائب العام! وماذا عن الدستور؟ وعن حرية الصحافة؟ ومع ذلك فسوف تقرونني على أن شاعرا يريد الغاء عقوبة الاعدام أمر شنيع. آه! فلو أن انسانا سولت له نفسه في العهد البائد أن

ينشر رواية ضد تعذيب المتهمين..! ولكنهم أصبحوا يستطيعون كتابة كل شئ منذ سقوط الباستيل! إن الكتب تحدث ضررا بليغا.

السيد البدين – بليغا! لقد كنا نعيش في هدوء ولا نفكر في شئ. كان يقطع في فرنسا رأس من حين لآخر هنا أو هناك أو رأسان على الأكثر في كل أسبوع، غير أن ذلك كله كان يتم في هدوء وبلا فضائح. كانوا لا يقولون شيئا، ولم يكن أحد يفكر في الأمر على الاطلاق! وهذا كتاب.. كتاب يحدث لك صداعا أليما!

السيد النحيل – علينا أن نجد الوسيلة التي تجعل المحلفين يحكمون بالاعدام بعد قراءة هذا الكتاب.

ارجاست – انه يربك الضمائر.

مدام دي بلانفال – آه! الكتب! الكتب! من كان يصدق ذلك عن رواية؟

الشاعر – ليس ثمة شك في أن الكتب كثيرا ما تكون سما لقلب النظام الاجتماعي.

السيد النحيل – دون أن نأخذ في حسابنا اللغة التي يحدث فيها السادة " الرومانتيك " ثورة كذلك.

الشاعر – علينا أن نميز أيها السادة، فثمة "رومانتيك" و"رومانتيك".

السيد النحيل – الذوق الفاسد! الذوق الفاسد!

ارجاست – انك لعلى حق. الذوق الفاسد!

السيد النحيل – ليس ثمة ما يرد به على ذلك.

الفيلسوف – (وهو يتكئ على مقعد سيدة): انهم يقولون هناك أشياء لم تعد تقال حتى في شارع موفتار.

ارجاست – آه! ياله من كتاب بغيض!

مدام دي برفال – اوه! لا تلقوا به في النار فهناك من تمتدحه.

الفارس – حدثيني عن زماننا الماضي. لشد ما فسد كل شئ منذ ذلك الحين: الذوق، والأخلاق! هل تذكرين زماننا يا "مدام دي بلانفال"؟

مدام دي بلانفال – كلا يا سيدي. لست أذكره أبدا.

الفارس – لقد كنا نحن الشعب أكثر لطفا وأكثر مرحا وخفة روح، وكانت الحفلات الجملة تقام دائما، وكانت تقرأ الأشعار الجميلة. كان ذلك ساحرا للغاية. أهناك ما هو أروع من الشعر الذي كتبه السيد "دي لاهارب" عن الحفل الراقص العظيم الذي أقامته مدام "لاماريشال دومابي" في عام ١٧٠٠ وهو العام الذي اعدم فيه "داميان؟"

السيد البدين – (متنهدا): يا له من زمن سعيد! والآن صارت الأخلاق مروعة، وكذلك الكتب. هذا البيت من الشعر الذي قاله بوالو.

"ان سقوط الفنون يتبع تدهور الأخلاق".

الفيلسوف – (في صوت منخفض موجها الحديث إلى الشاعر):

هل هناك عشاء في هذا البيت؟

الشاعر الحزين – نعم، بعد قليل.

السيد النحيل – والآن هم يريدون الغاء عقوبة الاعدام، ويكتبون لهذا الغرض روايات قاسية فاسدة الذوق ولا أخلاق فيها مثل "آخر يوم في حياة محكوم عليه بالاعدام" وغيرها مما لا أعرفه!

السيد البدين – عجبا يا عزيزي! لنكف عن الكلام عن هذا الكتاب الشنيع. وبما أننا قد تقابلنا، فقل لي ماذا ستفعل في أمر ذلك الرجل الذي رفضنا طلب استئنافه للحكم الصادر عليه منذ ثلاثة أسابيع؟

السيد النحيل – آه! قليلا من الصبر! أنا هنا في عطلة ودعني التقط أنفاسي. وسوف أرى ذلك بعد عودتي إلى العمل، ومع ذلك فإن تأخرت كثيرا فسوف أكتب إلى من يقوم بعملي.

خادم – (يدخل): سيدتي: إن العشاء قد أعد!



الفهرس